د. عبد الوهاب المسيري

الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح



دار الشروق

الإدراك الصهيونـي للعرب
والحوار المسلح

د. عبد الوهاب المسيري

الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح

دراسة للعلاقة بين الإدراك والسلوك السياسي

دار الحمراء
للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع

دار الحمراء
للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع
ص.ب ١١٣/٥٣٨٦ ـ بيروت ـ لبنان
هاتف : ٠١/٧٤٣٦٨٩

مقدمة

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وكيف تكون استجابة الإنسان الذي يتم تحدي خريطته الإدراكية، كما يحدث في فلسطين المحتلة حين يتحدى المنتفضون خريطة الصهاينة الإدراكية التي تستند إلى مجموعة من الأساطير والديباجات التوراتية من خلال المقاومة أو ما نسميه الحوار المسلح. وهذه القضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية. وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية: هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه. وعلى الرغم من أن كل فصول الكتاب تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، فإن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الخريطة الإدراكية وكيف تحدد الرؤية وكيف يمكن تحديها حتى يتم تعديلها أو تقويضها تماماً، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متعينة.

يحاول الفصل الأول («الخريطة الإدراكية والحوار المسلح») أن يقدم تعريفاً مبسطاً للمصطلحين الأساسيين في هذه الدراسة.

ويتناول الفصل الثاني («في الإدراك الصهيوني للعرب») خريطة الإدراك الصهيوني للعرب ومحاولة تجريدهم وتغييبهم والمقولات الأساسية التي يدرك الصهاينة العرب من خلالها.

وحيث إن الواقع مختلف عن الرؤية، نتناول في الفصل الثالث («الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي») ظهور العربي على شاشة الوعي الصهيوني وكيف استجاب الصهاينة لها، وكيف ترجمت هذه الاستجابة نفسها إلى سلوك. ويبين الفصل الرابع («الإدراك الإسرائيلي للعرب») والخامس («الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية») أن الإدراك الإسرائيلي لا يختلف في أساسيته عن الإدراك الصهيوني الذي تبلور قبل إنشاء الدولة. ويتناول الفصلان السادس («الإدراك الإسرائيلي لانتفاضة ١٩٨٧») والسابع («الاستجابة الإسرائيلية لانتفاضة الأقصى») الحوار المسلح بين المستوطنين الصهاينة والمقاومة الفلسطينية وكيف أدى إلى إعادة صياغة بعض جوانب الإدراك الصهيوني/ الإسرائيلي للعرب. وتحاول جميع فصول الدراسة أن تركز على المنحنى الخاص للإدراك الصهيوني وترصد تطوره عبر الزمان.

وقد قامت الأستاذة نيفين فاروق والدكتورة هبة غازي (جامعة عين شمس) بقراءة مخطوطة الكتاب قبل نشرها واقترحتا إدخال بعض التعديلات الهامة. وقام الأستاذ علي سليمان (مجلس الشورى) بتحرير الكتاب. فلهم مني جزيل الشكر وعند الله الجزاء.

والله من وراء القصد.

عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور - القاهرة

أكتوبر ٢٠٠٣

الفصل الأول
الخريطة الإدراكية والحوار المسلح

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسّي مادي مباشر، إلا في حالات نادرة، تتسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب. فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجنسية) التي يمكن أن يُردّ لها في كليته (كما يزعم الماديون)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا (كما يرى بعض السلوكيين). فعقله ليس مجرد مخ مادي: صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل مبدع، له مقدرة توليدية، وهو مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزّنة في الوعي واللاوعي.

الإدراك والسلوك.

لكل هذا حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته، ومن خلال عقله المبدع الذي يتفاعل ويقيّم، ومن

خلال ما يسقطه على الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعانٍ، أو رموز وذكريات، ومن خلال المنظومات الأخلاقية والرمزية التي تحدد له مجال الرؤية، فتبقي وتستبعد وتؤكد وتهمّش. كل هذه العمليات المركبة هي التي تمنح الإنسان ذاتيته وخصوصيته، وتمنح كل فرد فرادته، حتى يصبح من الصعب التنبؤ بسلوكه من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة.

وبسبب تركيبية الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي النماذج المعرفية أو الإدراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرائط معرفية ومقولات إدراكية يُنظم بها الإنسان واقعه ويُصنفه، وإلى صور إدراكية يُدرك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء.

ونحن نضع الخريطة الإدراكية (والنموذج المعرفي) في مقابل الواقع المادي في ذاته - أي الواقع الخام الموجود خارج حواس الإنسان والذي يتشكل بإدراكه. وأزعم أن الخرائط الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه (شأنها شأن النماذج المعرفية) تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية. ولعل أكثر الأمثلة درامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان. فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود)، وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيباً التي يضم نموذجها ألوان الطيف

الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها. ويقال إن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبناؤها سوى أربعة ألوان. وقد يبدو هذا أمراً متطرفاً، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة زيتية ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يطرأ لك على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات اللونية ما لم تدرك من قبل. ونحن هنا لا نتحدث عن «عمى الألوان» (وهو عيب فسيولوجي قد يُصاب به الإنسان) وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والخريطة الإدراكية ذاتها. فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه.

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعيته وموضوعيته ولاشخصيته وعموميته، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، وهو ولا شك له أثر في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة تتفاوت في مقدار عمقها من إنسان لآخر ومن لحظة زمنية لأخرى. ولهذا يمكن تفسير بعض جوانب وجود الإنسان وسلوكه باستخدام المنهج المادي والنماذج المستمدة من عالم الطبيعة (والتي تستخدم عادة في تفسير الظواهر الطبيعية). ولكن يظل هناك في الإنسان ما يستعصي على التفسير من خلال هذا المنهج ومن خلال تلك النماذج.

لكل هذا حينما ندرس الظواهر الإنسانية لا بد من استعادة لا الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي

وحسب، أي الفاعل الإنساني في علاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، ومع الملابسات المادية (الاجتماعية أو الاقتصادية ... إلخ) المحيطة به، وإنما يجب استعادة الفاعل الإنساني، الإنسان الإنسان، أي الإنسان في كل تركيبيته وأسراره وفاعليته وإبداعه التي تجعله يتجاوز بيئته المادية الطبيعية المباشرة وتجعل من العسير رده في كليته إليها. ولذا لا بد وأن نؤكد أنه لا يمكن دراسة ظاهرة الإنسان والظواهر الإنسانية مثلما نرصد الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل. فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها المقيتة) هي رؤية غير دقيقة لأن الدوافع (خيّرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان زيفها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسياً من الواقع الإنساني. وهذه القاعدة لا يمكن لأي إنسان تجاوزها، والصهاينة لا يشكلون أي استثناء لها. ولذا حينما ندرس سلوكهم لا بد وأن نذكّر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس استجابتهم المباشرة للعناصر والملابسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما إدراكهم لها.

انظر مثلاً لاستجابة هذين المعلقين الإسرائيليين لحقيقة «مادية موضوعية» مثل ظهور جيل جديد في فلسطين المحتلة وُلد وتربّى تحت حكم الاحتلال الإسرائيلي. ذهب المعلق الأول، وهو الجنرال بن إليعازر، إلى أن ظهور هذا الجيل يعني في واقع الأمر ظهور جيل برجماتي مرن قادر على التكيف، لا يكترث بالسياسة، مما يجعل من السهل القضاء على أي تمرد له طابع سياسي. بينما يرى الثاني، وهو يحزقئيل درور، أن ظهور مثل هذا

الجيل الجديد يعني في واقع الأمر ظهور جيل غير خائف من الإسرائيليين، وأن هذا هو الذي أدى إلى اندلاع الانتفاضة. وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي فُسِّر تفسيرين متضادين تماماً. والتضاد مصدره نموذجان معرفيّان ورؤيتان مختلفتان للإنسان، واحدة ترى أن الإنسان ينسى تاريخه وتراثه وذاته بمرور الزمن، فهو مادة محضة تعكس الواقع المادي المتغير وقوانين الحركة الأزلية، والأخرى ترى أن الإنسان لا ينسى تاريخه بسهولة، وأن تزايد الظلم قد يؤدي إلى تصعيد الثورة. ومما لا شك فيه أن رؤية كل واحد منهما ستحدِّد طريقة استجابته لما حوله وسلوكه تجاهها.

وأرجو ألا يُفهم مما أقول أنني أذهب إلى أن إدراك الإنسان يتحكم في سلوكه، فمثل هذا التصور يسقط في نفس الواحدية والاختزالية التي يسقط فيها النموذج السلوكي المادي الذي يُنكر أهمية الإدراك تماماً. فالأول يُنكر أهمية الواقع المادي والثاني ينكر أهمية الإدراك الإنساني. ما تطرحه هذه الدراسة هو أمر مغاير تماماً، فهي تذهب إلى أن سلوك الإنسان مركّب للغاية تحدده عدة عناصر متداخلة من بينها إدراك الإنسان لواقعه. وأن الإدراك الإنساني لا يؤدي إلى سلوك بعينه، وإنما يخلق تربة خصبة تزيد من احتمالات أن يسلك الإنسان سلوكاً بعينه دون غيره. فالعلاقة بين السلوك والإدراك - في تصورنا - علاقة احتمالية وليست حتمية.

لكل هذا تذهب هذه الدراسة إلى أنه يجب ألا ندرس البشر وكأنهم انعكاس مباشر لواقعهم المادي، أشياء صماء تتأثر بقوانين الحركة المادية، ظواهر طبيعية ترصد من الخارج كما ترصد الأشياء، إذ يجب دراستهم كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة

ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم.

الإجماع الصهيوني.

ولكن الخطاب السياسي العربي في تحليله للصهاينة (والحضارة الغربية، بل وللذات العربية) أسقط بعد الإدراك من حسابه وبالتالي أسقط الخصوصية فسقط في التعميم. ولا يعدو رصدنا للعدو في كثير من الأحيان أن يكون حديثاً عاماً عن قوته العسكرية والاقتصادية وعن مخططاته وربما عنصريته، ولذا نجد أن كثيراً من الدراسات تقوم بتوثيق ما نعرف مسبقاً، دون أي تعميق لرؤيتنا أو إضافة لإدراكنا. وتقوم بتطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته باعتباره كياناً سياسياً طبيعياً عادياً بحيث تُستخدم نفس المقولات التحليلية العامة التي تُستخدم في دراسة النظام السياسي الأمريكي وكأن الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر وكأنه لا يتسم بالشذوذ البنيوي. وتذهب هذه الدراسة إلى أنه إذا كانت بنية الظاهرة هي مجموعة العلاقات المتشابكة التي تكوّن هذه الظاهرة وتمنحها صفاتها الأساسية ومنحناها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الظواهر، فإن الشذوذ البنيوي هو حالة لصيقة ببنية هذه الظاهرة، أي بتركيبها الجوهري. وإصلاح هذا الشذوذ يعني تغيير بنية هذا الشيء تماماً.

والسمة الأساسية للدولة الصهيونية أنها تجمّع استيطاني إحلالي يوظّف الديباجات اليهودية، وأن نقطة انطلاقه هي أن اليهود شعب عضوي يعيش في الغرب ولا ينتمي إليه، ولذا يجب أن يوطّن في أرض أجداده، أي فلسطين، التي يجب أن تفرغ ممن قد

يتصادف وجوده فيها من البشر. وقد ترجمت هذه الصيغة إلى الشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». وهذه هي الركيزة الأساسية للخريطة الإدراكية الصهيونية، والتي يتحرك الصهاينة في إطارها والتي ترجمت نفسها إلى ما نسميه «الإجماع الصهيوني».

و«الإجماع» في عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية. و«الإجماع الصهيوني» هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين التيارات والاتجاهات والأحزاب الصهيونية التي تضم الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين ومع يهود العالم ودول العالم، وبخاصة دول العالم الغربي وفي مقدمتها الولايات المتحدة التي ترعى الكيان الصهيوني. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، وكلها لا تتصرف قط إلى المسلمات النهائية. (والعقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني هو نفسه هذا الإجماع، وهو الذي يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية).

وقد اهتزت معظم هذه المسلمات، نقول «اهتزت» ولا نقول «زالت». إذ إنه رغم الاهتزاز هذا، الذي فرضه الواقع المقاوم على المستوطنين الصهاينة فرضاً، تظل غالبيتهم الساحقة تدور في إطار الإجماع الصهيوني، الذي يمكن تقسيم بنوده الى قسمين: قسم خاص بعلاقة المستوطنين الصهاينة بالدولة الراعية وبالجماعات اليهودية في العالم وقسم خاص بموقفهم من العرب.

ولنبدأ بالقسم الأول:

١ - اليهود شعب واحد، طليعته هو المستوطنون الصهاينة، وفلسطين هي أرض الميعاد أو إرتس يسرائيل (وطن اليهود القومي)

وليست فلسطين، وطن أهلها. وحدود إرتس يسرائيل مراوغة مطاطة لا يمكن تحديدها في الوقت الحاضر، إذ لا بد أن تتوسع إسرائيل لتصل لحدودها «التاريخية» (التي ورد ذكرها في التوراة!). وعلى يهود العالم أن يهاجروا إلى إرتس يسرائيل وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية ويقوموا بدعمها مالياً وسياسياً فهي المركز وهم الهامش. هذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة (دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد) تجسّد الرؤى اليهودية، وبإمكان اليهودي أن يحقق فيها ذاته وهويته.

ولكن الدولة الصهيونية بدأت تدرك أن اليهود ليسوا شعباً واحداً (كما كان يدّعي الصهاينة قبل عام ١٩٤٨). وسؤال من هو اليهودي لا يزال سؤالاً ملحّاً، يطرح نفسه على الدولة الصهيونية وعلى قاطنيها من المستوطنين الصهاينة. ولذا لم تعد الدولة الصهيونية تطلب من يهود العالم الغربي الهجرة إليها، ولم تعد تتبع الأسلوب العقائدي العدواني الذي كانت تتبعه في الماضي. ومن هنا كفّ الحديث عن الشعارات القديمة مثل «جمع المنفيين» و«غزو الجاليات» و«تصفية الدياسبورا» و«إسرائيل الكبرى حدودياً»، وبدأ، بدلاً من ذلك، الحديث عن «الصهيونية التكنولوجية» أو «الإلكترونية» (أي التي تساهم في بناء «الوطن القومي اليهودي» من خلال التنكولوجيا والإلكترونيات)، كما يتحدث الصهاينة الآن عن «صهيونية الدياسبورا» و«إسرائيل العظمى اقتصادياً» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج، أي أن الحركة الصهيونية قد قبلت بأمر واقع مفاده أن اليهود ليسوا شعباً واحداً وأن إسرائيل ليست وطنهم الوحيد وأن يهود المنفى لهم حق البقاء فيه، ومن هنا قبول الصهيونية التوطينية، والتنازل عن الأهداف القصوى للصهيونية الاستيطانية المطالبة ب «تصفية الدياسبورا»،

ومن هنا أيضاً محاولة توظيف يهود «المنفى» في منفاهم، أي أوطانهم.

٢ - لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل، فتفكيك المستوطنات يضرب في صميم الشرعية الصهيونية، ولا بد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر، والدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية، وحدودها هي نهر الأردن. ولكن، هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة بطرق برية أم أنفاق تحت الأرض، أم تظل منفصلة؟ وهل هي مستوطنات أمنية مؤقتة أم دائمة؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود. إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هي نهر الأردن بالفعل وأن الوجود الإسرائيلي هناك وجود دائم، أما العماليون فمستعدون «للخروج» من هذه الأرض (من الناحية النظرية على الأقل) للحفاظ على يهودية الدولة الصهيونية فيما يسمَّى «الصهيونية السكانية». فضم الضفة الغربية بمن عليها سيجهز على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية. وكل هذه الاختلافات السابقة إن هي إلا امتداد للاختلافات التي نشأت من البداية، بين التيارات الصهيونية المختلفة.

ولكن مع هذا نجد أن أمراً جوهرياً مثل الاستيطان، حجر الزاوية في الإجماع الصهيوني، قد يصبح هو الآخر موضع خلاف. فمع تزايد مشاعر العداء بين مستوطني عام ١٩٤٨ (وراء الخط الأخضر) ومستوطني الضفة والقطاع، بسبب حجم الإنفاق الاقتصادي والعسكري العالي الذي ليس له عائد واضح، ظهرت أصوات كثيرة تصف هذا الاستيطان بأنه «مكلف»، أو «مترف»، أو كصنبور الماء المفتوح، وطالب البعض، من منظور صهيوني، بوقفه أو فكه أو تجميده، وبخاصة بعد أن أصبح الاستيطان «مكيف الهواء»

وأصبح على الجيش حماية المستوطنين (بعد أن كانوا يشكلون طليعته العسكرية).

٣ - القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية (وليست موضوعاً للمساومة) وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكاناً خارج القدس وليسموه ما شاؤوا ال Quds على سبيل المثال، وهذه (مع الأسف) ليست مجرد نكتة سياسية وإنما حقيقة صهيونية.

٤ - يذهب الإجماع الصهيوني - رغم ديباجات الاستقلال الصهيوني والاعتماد على الذات ورفض الجوييم - إلى أنه دون الدعم الغربي، وبخاصة الأمريكي، للمستوطن الصهيوني لن يُقدر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطن الصهيوني هو أساساً دولة وظيفية أُسست للاضطلاع بوظيفة أساسية، هي الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيوني وضمن له البقاء والاستمرار كي يدافع عن مصالح الغرب في المنطقة، ودون أداء الدولة الصهيونية لوظيفتها، لن يكون هناك دعم.

هذه هي بنود الإجماع الصهيوني بخصوص علاقة المستوطنين الصهاينة بيهود العالم والدولة الراعية. وماذا عن علاقتهم بالسكان الأصليين (الفلسطينيين - العرب)؟

١ - وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين - حسب التصور الصهيوني - أمر عرضي زائل، ومن ثم لا بد من التخلص منهم بشكل ما (لتأسيس الدولة اليهودية المقصورة على اليهود). وانطلاقاً من كل هذا يصبح من «حق» الدولة الصهيونية أن «تدافع» عن نفسها وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال «جيش الدفاع الإسرائيلي» ضد «إرهاب» السكان الأصليين، أي الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية. وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يساري ولكن في التحليل

الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون واحد.

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية باعتبارها «قضية أخلاقية» وحسب، ومن ثم يجب عدم الحديث عن «عودة» الفلسطينيين إلى ديارهم («إعادة توطينهم» في المصطلح العربي)، وإنما يجب الحديث عن «منح تعويضات» مالية للمتضررين منهم. أما المتبقون فيستوعبون في أماكن وجودهم (أي في البلدان العربية المختلفة، وبخاصة سوريا ولبنان).

ومع هذا أدرك الصهاينة صعوبة التخلص من الفلسطينيين ومن وجودهم «العرضي الزائل». ولذا يحاول الصهاينة الآن قبول الأمرالسكاني الواقع مع الاتجاه نحو تقليل الاحتكاك بالفلسطينيين، ومحاصرتهم عبر إقامة كيان خاص بهم، لأنهم يهددون شرعية الوجود الصهيوني ذاته. ولكن الحديث عن «محاصرة السكان» هو نفسه دليل على الفشل الصهيوني في إنشاء الدولة الصهيونية الخالصة، وفي حماية المزاعم الصهيونية التي تحدتها الانتفاضتان المباركتان. وقد تحوّل النظام الاستيطاني الصهيوني عن الإحلال وأصبح نظاماً مبنياً على التفرقة العنصرية (الأبارتهايد).

٢ - سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب، فالأمر الواقع هو الذي يغيّر الواقع [العربي] ويفرض واقعاً [صهيونياً] جديداً عليه ويمكن تحقيق السلام وبالشروط الصهيونية من خلاله.

وقد أثبتت الانتفاضة و«الحزام الأمني» في لبنان عدم جدوى الأمر الواقع وعبثيته واستحالة فرض السلام بالشروط الصهيونية. ولذا نجد أن الإجماع الصهيوني قد اهتز بشأن غزوات إسرائيل العسكرية «دفاعاً» عن نفسها (والتي تفرض الأمر الواقع والسلام

بالشروط الصهيونية من خلالها)، وإن ظل الإجماع الصهيوني بشأن قمع الانتفاضة، لأنها تتحدى شرعية الوجود الصهيوني ذاتها.

٣ - الكيان الفلسطيني الذي سينشأ (في الضفة والقطاع) كيان سياسي منقوص السيادة، منزوع السلاح وبدون جيش. ويشبّه الكيان الفلسطيني ببورتوريكو وأندورا (والأولى دولة حرة، تابعة للولايات المتحدة، لسكانها حق التصويت، دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية، أما الثانية، فتخضع لنظام حكم تحت سيادة فرنسا وأسقف من إسبانيا [فهي تقع بين البلدين]). أما ماذا تُسمّى هذه الدولة (هل هي «حكم ذاتي» أم «دولة فلسطينية مستقلة»؟) فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

وقد اهتزت بنود الإجماع الصهيوني بسبب تحدي الواقع للخريطة الإدراكية الصهيونية. ولعل أكبر تحدٍّ تواجهه هذه الخريطة هو المقاومة العربية، فهو وحده الكفيل بتقويض الخريطة الإدراكية الصهيونية العنصرية ليصل المستوطنون الصهاينة إلى درجة من الرشد تجعلهم ينفضون عن أنفسهم مقولاتهم العنصرية، تماماً كما حدث في جنوب إفريقيا. وهذا لا يمكن إنجازه إلا بالدخول مع العدو في حوار على جميع المستويات.

الحوار والحوار النقدي والحوار المسلح.

«الحوار» مصطلح يعني حرفياً حديثاً يجري بين شخصين. وهو ترجمة لكلمة «ديالوج d'alogue» المكونة من مقطعين «ديا dia» وتعني «اثنين»، أما «لوج logue » فهي من الفعل اللاتيني «لوكور loquor» والتي تعني «يتحدث». فهو حديث بين اثنين (على عكس المونولوج فهو حديث شخص واحد [مونو] مع نفسه). وكلمة «حوار» تفترض شكلاً

من أشكال الندّية والمساواة. وأنا كمسلم أؤمن أن الله - سبحانه وتعالى - قد منح كل البشر قدراً من الرشد، وأن الإنسان، بما حباه الله من عقل، قادر على أن يتجاوز إدراكه الضيق ليصل إلى إدراك أكثر رحابة وإنسانية. ولكن إذا كان الإنسان، الذي تحاول الحوار معه فاشياً عنصرياً، ممسكاً بمدفع رشاش، ويصرّ على أن يسلك في حدود خريطته الإدراكية، أو يحاول أن يفرضها فرضاً على الواقع فيبطش بالآخرين ويدوس عليهم، فما العمل؟ هنا يجب أن ندرس قضية الحوار بإمعان شديد.

ويلاحظ أن الصهاينة يدعون إلى «الحوار» و«التفاوض وجهاً لوجه» و«الابتعاد عن عقد التاريخ وحساسيات الهوية». ومثل هذه الدعوة للحوار دون تحديد المنطلقات والأطر هي في واقع الأمر دعوة لمحو الذاكرة والتخلي عن القيم والتعري الكامل. وفي غياب الندّية فإن ما يحسم الحوار هو السلاح، أي أنها دعوة للتطبيع من الجانب العربي دون أن يقوم الجانب الصهيوني بإزالة استيطانيته الإحلالية، التي تسبب شذوذه البنيوي.

ولكي يكون الحوار مثمراً لا بد أن يبدأ من التاريخ والقيم ومن الواقع المركب الذي نعيشه، فالبشر ليسوا مثل الفئران عقولهم صفحة بيضاء، فنحن كلنا نحمل عبء الذاكرة والتاريخ والأخلاق وهذا ما يجعلنا بشراً، ونحن جميعاً نعيش في الواقع وندركه من خلال تجربتنا المتعينة. ولذا في أي حوار مع الآخر الصهيوني لا بد أن نبدأ بتعريف المشكلة لا أن ننساها أو نتناساها، ولا بد أن نتذكر أن هناك كياناً استيطانياً إحلالياً وكتلة بشرية غازية وأن ثمة «مسألة فلسطينية» متمثلة في شعب فقد أرضه ولم يفقد ذاكرته، ولذا فهو متمسك بها، يناضل من أجلها، أي أن الحوار لا بد أن يبدأ بالاعتراف بشذوذ إسرائيل البنيوي وشرعية المقاومة وفحوى

التاريخ وبالوجود الفلسطيني.

ولا بد أن يبدأ الحوار من تقرير الإطار القيمي وأن العدل هو الذي يجب أن يسود وأن العنصرية شيء بغيض، ومن ثم لا بد أن يتوجه الحوار لقضية الظلم الذي حاق بالفلسطينيين والتمييز العنصري الذي يلاحقهم في فلسطين المحتلة قبل وبعد عام ١٩٦٧.

ويجب أن ندرك أن الحوار أنواع، فهناك الحوار بين طرفين يتفقان في المنطلقات والأطر المرجعية والمبادئ، والهدف من الحوار في هذه الحالة هو تحويل هذا التفاهم العام إلى إجراءات محددة، وهذا هو أسهل أنواع الحوار، ويمكن أن يتم بشكل سلمي.

لكن إن كان الطرفان غير متفقين في المنطلقات ولا الأطر ولا المبادئ، فيمكن في هذه الحالة إجراء ما يسمَّى «حواراً نقدياً»، وهو حوار يمكن أن يتم على مائدة المفاوضات وعبر وسائل الإعلام حيث يحاول كل طرف أن يبيّن للطرف الآخر وجهة نظره وعدالتها ويبيّن عنصرية الآخر ولاعقلانيته.

ولكن إن كان هناك حوار بين طرفين غير متفقين في المنطلقات والآراء والأطر المرجعية، وكان أحد الطرفين نسبياً يرفض أي مطلقات أخلاقية ومرجعية ويجعل من نفسه مرجعية ذاته، مكتفياً بذاته، ويجعل من خريطته الإدراكية الخريطة الوحيدة الممكنة، فإن قيام أي حوار أمرٌ مستحيل. وتسوء الأمور إن كان الطرف الذي نصّب من نفسه المرجعية النهائية المطلقة مسلحاً برؤية نيتشوية داروينية، تنطلق من المبدأ القائل بأن البقاء للأصلح بمعنى الأقوى، وأن ما يحسم الأمور هي القوة العسكرية وسياسات الأمر الواقع التي تستند إلى الغزو العسكري.

في هذه الحالة يمكن أن ينشأ نوع من الحوار نسميه

«الحوار المسلح»، حين يقوم الطرف الذي وقع عليه الظلم بالمقاومة، فهو من خلال مقاومته وإلحاق الأذى بالآخر الظالم، يبدأ هذا الآخر في إدراك أن رؤيته للواقع ليست بالضرورة مطلقة ولا نهائية، فتتفتح كوة من الرشد الإنساني في سحب الظلم الكثيفة ويبدأ الآخر الظالم في إدراك الظلم الذي وقع على ضحيته ومن ثم قد يعدّل موقفه. وهذا يتطلب رصداً ذكياً ومستمراً من جانب الضحية المقاوم، حتى يدرك أن اللحظة قد حانت للدخول في التفاوض مع الآخر الظالم. هذا لا يعني التوقف عن المقاومة، لأنه لو جرى الحوار دون المقاومة المسلحة فإن هذا الآخر، حبيس حواسه الخمسة ورؤيته الداروينية، قد يرى الرغبة في التفاوض باعتبارها مؤشراً على استعداد الضحية للاستسلام للذبح مرة أخرى. وقد أدرك الفيتناميون هذا الوضع، فدخلوا في حوار مسلح مع الأمريكيين انتهى بالطرفين إلى مائدة المفاوضات، ولكن لم يتوقف الفيتناميون عن القتال إلا بعد انتهاء المفاوضات.

وقد جرى حوار مسلح حقيقي بين المستوطنين الصهاينة وحزب الله انتهى بإدراك المؤسسة العسكرية الصهيونية استحالة الاستمرار في احتلال جنوب لبنان وتصور أنها جزء من إسرائيل، أو أن من حق إسرائيل تحويلها إلى حزام أمني. وهناك حوار مسلح يجري بين المستوطنين الصهاينة والفلسطينيين بشكل يومي توقف مع اتفاقية أوسلو، ثم عاد مرة أخرى مع انتفاضة الأقصى. ويطالب الصهاينة بإيقاف هذا الحوار المسلح قبل تقديم أية تنازلات. ولكن السؤال هو: إذا ما توقف الحوار المسلح، ما الذي يدفع الإسرائيليين لتنفيذ القرارات الدولية؟ ألن تعود الخريطة الإدراكية العنصرية وتعشش على عقولهم مرة أخرى كسحابة سوداء؟

هذه هي بعض القضايا التي سنناقشها في هذا الكتاب.

الفصل الثاني
في الإدراك الصهيوني للعرب

استمدت الفكرة الصهيونية ملامحها الأساسية، ثم مقومات وجودها، من الحضارة الغربية (الرأسمالية/الإمبريالية) في القرن التاسع عشر، خاصة في الجزء الأخير منه. وقد كانت هذه الحضارة في تلك المرحلة الزمنية قد وصلت منعطفاً خطيراً وهاماً للغاية من تاريخها، ومن تاريخ البشرية جمعاء، بعد الانفجار الذي حدث في إنتاج السلع نتيجة للثورة الصناعية، إذ تحولت إلى حضارة نهمة مفترسة جعلت من الإنتاج غاية لا وسيلة وجعلت الغرض من إنتاج السلع هو الربح لا سد حاجة إنسانية ما.

وقد أدى هذا الانفجار الإنتاجي (المنفصل عن أي سياق إنساني أو أي إطار أخلاقي) إلى نمو الظاهرة المعروفة بالإمبريالية التي وصلت إلى ذروتها في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي ولدت فيها الصهيونية واقتسم الغرب فيها العالم.

وكان لا بد من ظهور اعتذاريات تبرر هيمنة الإنسان الغربي على مصائر كل البشر، واغتصابه لكل الثروات على وجه الأرض، واقتسامه لآسيا وإفريقيا وأمريكا، ولإبادته لسكان قارات بأكملها

(الأمريكتان وأستراليا) ولاستعباده ونقله لأعداد هائلة من سكان قارة أخرى (إفريقيا) ولاستغلاله لشعوب قارة رابعة واحتلاله لبلدانها (آسيا، خاصة الهند). وقد شهدت هذه المراحل بالفعل تطور وتبلور الفكر العنصري الغربي وظهور كل كلاسيكياته المعروفة ابتداءً بفكر هيجيل الذي يحتوي داخله على النظرية العنصرية الغربية بشكل جنيني، مروراً بفختة وتريتشكه ونيتشه وتشامبرلين، وانتهاء بهتلر ومنظري النازية.

ومن الصعب تلخيص هذا التراث الضخم والمركب من الكتابات العنصرية الغربية، وهو أمر على أية حال يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول الوصول إلى بعض ملامحه الأساسية، لأننا بذلك ندرك أيضاً الملامح الأساسية للفكر الصهيوني. ويمكن القول بأن أهم تبديات الرؤية العنصرية في الغرب هو تحويل الذات القومية، أو «إثنية» الإنسان، إلى مصدر وحيد للقيمة ومطلق وحيد يؤمن به الإنسان، بحيث يصبح ما هو خارج هذه الذات مجرد وسائل يمكن استخدامها (على أحسن تقدير) وعوائق يجب إزالتها (على أسوأ تقدير).

وقد أفرزت هذه الرؤية نظرية للحقوق الأزلية لا تخضع للنقاش ولا يتمتع بها سوى صاحب الإثنية. ولكن الحل الإمبريالي لمشاكل أوربا كان تصديرها إلى الشرق، ولذا عُرفت هذه الهوية على أنها متفوقة أيضاً بحيث اتسع نطاق نظرية الحقوق ليبتلع حقوق الآخرين «المتخلفين» في آسيا وإفريقيا والأمريكتين حيث توجد تشكيلات حضارية بدائية لا قيمة إنسانية لها، كما كان يدعي الإمبرياليون، ومواد خام يمكن استخدامها لتزويد الآلة الصناعية الرهيبة، وسوق ضخمة تبتلع كل السلع التي أنتجت بهدف الربح.

ويمكننا القول - بكثير من الاطمئنان - بأن بنية الرؤية

الصهيونية لكل من اليهود والعرب قد اكتسبت نفس هذه الملامح. فالحركة الصهيونية قد بدأت بين اليهود بإعلان التمرد على الدين اليهودي والشريعة اليهودية، وقام الصهاينة بإحلال اليهودي ذاته والإثنية اليهودية محل العقيدة اليهودية كمصدر أساسي للقيمة، وأصبحت هذه الذات هي المطلق الذي يبحث عن التحقق في التاريخ (وكأنها كلمة الله).. ولذلك فإننا نجد أن منطق الرؤية الصهيونية للذات الصهيونية وتحققها يعني اختفاء العربي وغيابه (لا سبه أو نعته بالتخلف وحسب على الطريقة الغربية) بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسي وغرضها النهائي، وقصدها الخفي في معظم الأحيان، والمعلن في أحيان قليلة.

وإذا افترضنا أن تحقق هذا المتصل الإدراكي أو ذروته هو الغياب الكامل للعربي، فإن كل الأجزاء والمراحل الأخرى تنزع نحو ذلك. وفي نظامنا التصنيفي، سنبدأ بأقصى اليمين، وهي لحظات إدراكية نادرة يدرك فيها العقل الصهيوني وجود الإنسان العربي الحقيقي وتاريخه ونضاله بل وحقوقه. وفي أقصى اليسار، هناك الرغبة الصهيونية العارمة في أن يغيب العربي حتى تخلص له الأرض دون سكانها. ومن الطرف الأول إلى الطرف الآخر، ثمة اتجاه تدريجي نحو التخلص إدراكياً (وفعلياً) من هذا العربي، ابتداءً من نعته بأنه إنسان شرقي ملوّن متخلف، ثم رؤيته على أنه ممثل للأغيار بكلّ وحشيتهم وقسوتهم، ولذلك فهو يستحق ما يحل به، ثم محاولة تهميشه، وانتهاءً بإنكار وجود العربي أساساً.

ويلاحظ أن الحركة هنا هي حركة نحو مزيد من التجريد، فبدلاً من رؤية الإنسان الفلسطيني كإنسان حقيقي مزارع يعيش في أرضه وأرض أجداده يزرعها وينتج أشكالاً حضارية تستحق الاحترام، يتحول هذا الفلسطيني إلى إنسان شرقي متخلف لا

يستغل الأرض على أكمل وجه. ثم تزداد درجة التجريد ليصبح ممثلاً للأغيار، عليه أن يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الإنسان على أنه شخصية هامشية تفتقد أية هوية قومية أو حضارية أو أية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد ذروته (والرؤية لحظة تحققها) حينما تنكر الأدبيات الصهيونية وجود هذا الإنسان أساساً وتغفل الإشارة إليه. وفي بقية هذا الفصل، سنتناول بشيء من التفصيل مقولات الإدراك الصهيوني الأربع:

(أ) العربي المتخلف.

(ب) العربي ممثلاً للأغيار.

(ج) العربي الهامشي.

(د) العربي الغائب.

العربي المتخلف.

نظرت الصهيونية لنفسها على أنها جزء من التشكيل الحضاري الاستعماري الغربي حتى تستفيد من نظرية الحقوق والواجبات السائدة في الغرب في القرن التاسع عشر، والتي عرّفت واجب الإنسان الأبيض بأنه إدخال الحضارة في المناطق الأقل تحضراً في آسيا وإفريقيا، وذلك عن طريق الاحتلال الفعلي للقارتين(١)، حتى ولو أدى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين(٢).

وقد دأب مفكرو الحركة الصهيونية على تعريف اليهود بأنهم جزء من الجنس الأبيض المتقدم. وكان هرتزل، كما جاء في يوميات هرتزل التي تولى نشرها رفاييل باتاي، يرى مشروعه الصهيوني في إطار فكرة عبء الرجل الأبيض(٣)، وقد تبعه في

ذلك زانجويل(٤) وآخرون، كما بيّن جيورج جابور في دراسته الهامة عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني.

وعلى ذلك، فإننا نجد في الكتابات الصهيونية حديثاً طويلاً ومملاً عن النظافة الغربية والنظام الغربي والحضارة الغربية التي سيأتي بها الصهاينة كممثلين للحضارة الغربية في «الشرق الموبوء»(٥) ، وهذا موضوع أساسي كامن متواتر في الأدبيات الصهيونية يمكن لمن يشاء أن يعود لأعمال معظم المفكرين الصهاينة ليجد أطناناً من الأقوال تدعم رأينا هذا.

هذه الرؤية للذات الصهيونية الغربية المتقدمة تفترض صورة العربي الشرقي المتخلف، وهي صورة محورية في الأدبيات الصهيونية. وقد لاحظ المفكر الصهيوني أحاد هعام عام ١٨٩١ أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، وينظرون إليهم باعتبارهم «متوحشين صحراويين»، «شعباً يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم»(٦). كما لاحظ أحد الرواد الصهاينة في أوائل القرن فإن الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الأوروبيون السود(٧). أما هارون أرونسون، أحد زعماء المستوطنين في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين، فقد حذر الرواد الصهاينة من أن يقطنوا بجوار «الفلاح (العربي) القذر، الجاهل والذي تتحكم فيه الخرافات»، كما أنه كان أيضاً يؤمن بأن «كل العرب مرتشون»(٨).

والعربي، حسب تصور وايزمان، يتصف بنفس الصفات تقريباً التي ذكرناها من قبل، فهو «عنصر منحط»(٩) يحاول «الجري قبل أن يستطيع السير»(١٠)، وأنه شعب غير مستعد للديمقراطية ومن السهل أن يقع «تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك»(١١). وقد أرسل هذا الزعيم الصهيوني خطاباً لترومان رسم فيه صورة مشرقة

للذات الصهيونية المتقدمة في مقابل الصورة الكئيبة للمجتمع العربي الأمي الفقير في فلسطين(١٢). وأعتقد أنه لا يفيد كثيراً أن نأتي بمزيد من «الأدلة» والقرائن والبراهين من أعمال بن جوريون أو جابوتنسكي أو غيره من الكتاب الصهاينة إذ إن مثل هذا سيكون مجرد تمدد أفقي لا يغير من الصورة كثيراً. ولأننا لسنا في مجال محاكمة الفكر الصهيوني بل نهدف إلى فهمه وتصنيفه، فإننا لا بد أن نقف هنا قليلاً لندرس هذا البعد من الإدراك الصهيوني للعرب.

صورة العربي المتخلف تعود بجذورها إلى الاعتذاريات والكتابات العنصرية التي تتحدث عن عبء الرجل الأبيض، ولذلك فهي لا تتسم بأية خصوصية صهيونية، فالعربي المتخلف لا يختلف كثيراً عن الإفريقي المتخلف أو الآسيوي المتخلف أو حتى الأمريكي الأسود المتخلف، فكلهم سواء من وجهة نظر الإنسان الغربي المتقدم. ولذلك، فإننا نجد أن الوصف هنا يتسم بالعمومية والتجريد والانتقاء، وهذا أمر حتمي في أي تفكير عنصري، لأنه إن لم يتسم بذلك لوجد العنصري نفسه أمام وجود متعين محسوس له قيمة تاريخية متعينة محددة ولأصبح من العسير استغلال صاحب هذا الوجود واقتلاعه وإبادته.

ولكن، إذا كان العربي متخلفاً إلى هذا الحد، والصهيوني متقدماً إلى هذا الحد، أليس من المنطقي إذن أن نتوقع أن يأخذ الثاني بيد الأول؟! هنا يجب أن نهيب بمنطق التاريخ قليلاً طارحين جانباً منطق الأسطورة، لنكتشف أن وايزمان العقلاني، الذي كان يذم العرب لتخلفهم، لم يحاول قط أن يأتي بالنور والحداثة والتقدم، بل ساعد على تكريس التخلف، ولذا فقد بذل قصارى جهده للإفادة من الخلافات العربية المختلفة ومن الاحتكاك بين

الفلاحين والبدو ومن التوترات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين ومن الصراعات بين العناصر الحضرية والريفية(١٣). بل وحاول الصهاينة في صيف عام ١٩٢١ تأسيس منظمة قومية إسلامية تتخذ موقفاً ممالئاً للبريطانيين وتعارض المنظمات الإسلامية/ المسيحية المعارضة للاستعمار، وقد نجحوا بالفعل في تأسيس مثل هذه المنظمات في حيفا والناصرة وطبرية(١٤)، ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلاً. وقد فضل الصهاينة دائماً التعامل مع القيادات التقليدية وسحق القيادات الحديثة.

والصهاينة محقون في ذلك تماماً، فلقد أدركوا منذ البداية أن تحديث العرب وتقدمهم يعني تحقق الإمكانية العربية الكامنة، وأن تحققها سيؤدي لا محالة إلى الغياب الصهيوني، وهو أمر لا يمكن لحركة سياسية ذات مصالح حضارية/ طبقية محددة أن تسمح به. ولكل هذا، يمكننا القول بأن الإدراك الصهيوني للعربي من خلال هذه المقولة لا يجعل منه إنساناً شرقياً متخلفاً وحسب وإنما يؤبد بقاءه على هذا الوضع.

العربي ممثلاً للأغيار.

تتسم الرؤية الصهيونية للذات بالتنوع بل وبالتناقض أحياناً. والصهاينة الذين يرون أنفسهم كشكل من أشكال التعبير عن الحضارة الغربية، يرون أنفسهم أيضاً كتعبير عن الجوهر اليهودي الخالص. وبذا، يصبح المشروع الصهيوني ليس ممثلاً للحضارة الغربية المتقدمة وإنما ممثلاً للشعب اليهودي الذي عانى الويلات عبر تاريخه على يد الأغيار. ولكن رؤية الذات - كما أسلفنا - مرتبطة برؤية الآخر، ولذا فإننا نجد أن العربي، في هذا السياق الجديد، يتحول من العربي المتخلف إلى عربي ممثل للأغيار. ولأن

الموقف الصهيوني من الأغيار يتسم بالاستقطاب المتطرف، فإن العالم ينقسم إلى الضحايا اليهود والأغيار الذئاب: شعب مختار وشعوب متربصة به دائماً وأبداً. وإذا كانت الاستراتيجية الإدراكية الأساسية عند العنصريين هي - كما أسلفنا - تجريد الضحية من إنسانيته التاريخية المتعينة، وبالتالي من حقوقه، فإن عملية التجريد هذه تكتسب هنا خصوصية تزيد التجريد حدة وضراوة. وعلى هذا، فإن مقولة الأغيار أكثر تجريداً من مقولة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء، ومن مقولة اليهودي في الأدبيات النازية، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية. والواقع أن تجردها ينبع لا من كونها لا ترتبط بزمان أو مكان محدد وإنما لأنها تضم كل الآخرين في كل زمان ومكان. فالعربي شرقي متخلف مرتبط على الأقل بمكان ما هو الشرق وزمان ما هو الماضي، أما حينما يصبح ممثلاً لكل الأغيار فإنه يصبح لا تاريخ له ولا أرض، ويفقد كل ملامحه وقسماته، وبذا تحقق الاستراتيجية الإدراكية خطوة كبيرة إلى الأمام (نحو الغياب الكامل).

ومرة أخرى، يجب أن ندرك أن الصهاينة كانوا يتبعون في ذلك التشكيل الحضاري الغربي. فالصهيونية ذات الديباجة المسيحية، والتي يسبق تاريخها تاريخ الصهيونية ذات الديباجة اليهودية، تقبلت مثل هذا التقسيم للعالم كيهود وأغيار. ولذلك يتحدث وعد بلفور عن «الجماعات غير اليهودية»، أي جماعة الأغيار التي تشغل الأرض. وقد أشار هرتزل أثناء تفاوضه بشأن كريت (لتصبح موقعاً للاستيطان الصهيوني) إلى سكانها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، بأنهم مجرد أغيار «عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق»(١٥).

إن هذا الإدراك للعربي ممثلاً للأغيار ساعد الصهاينة على تفسير الثورات العربية الفلسطينية المتتالية تفسيراً يتلاءم مع مصالحهم وتحيزهم ورؤيتهم، إذ تصبح المقاومة العربية جزءاً من مؤامرة الأغيار الأزلية. فقد وصف إسحق بن تزفي، رئيس إسرائيلي سابق، المقاومة العربية بأنها مجرد مذبحة أخرى يرتكبها المعادون لليهود قام قنصل روسيا في فلسطين بالتحريض عليها(١٦). وحينما اختفى القنصل الروسي بعد الثورة البلشفية، كانت القيادة الصهيونية ترى عملاء إنجلترا ثم عملاء فرنسا في العشرينيات، وعملاء ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في الثلاثينيات، كمحرضين على هذه الثورة(١٧) . أما في الأربعينيات، كما أشار فلابان، فقد أصبحت سلطات الانتداب والإدارة العسكرية في فلسطين - حسب هذه الرؤية - هي المحرك الرئيسي لثورة الفلاحين الفلسطينيين(١٨). وقد لخص أحد المستوطنين الصهاينة هذا الموقف بقوله إن ثورة الفلاحين الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم وإنما هي تعبير عن العداء الأبدي الذي يبديه الأغيار نحو اليهود «بوصفهم شعباً طرد من بلاده»(١٩).

وهكذا، ومن خلال هذا الإدراك، يستوعب الصهاينة التمرد العربي ويضعونه داخل قالب مجرد يفرغه من مضمونه الإنساني بحيث لا يشكل الأمر أي تهديد نفسي للمغتصب بل ويحول هذا المغتصب - مهما بلغ جرمه من بشاعة - إلى ضحية أبدية!.

وقبل أن ننتقل للمقولة الثالثة، قد يكون من المفيد أن نذكر أن الإدراك الصهيوني للعرب يركز دائماً على الماضي والحاضر ويكاد يسقط المستقبل تماماً في معظم الأحيان، وإذا تم التعرض له فإن المستقبل يُنظر إليه باعتباره امتداداً كمياً للماضي وليس مجالاً للتحول الكيفي. ولا شك أن مثل هذا الموقف هو النتيجة

الطبيعية لإسقاط التاريخ والزمان وتحويل العربي إلى كم متخلف غير قادر على الحركة أو ممثل لازمني للأغيار يتخطى الحاضر والمستقبل.

العربي الهامشي.

بينّا في بداية الفصل أن الترجمة الكاملة للرؤية الصهيونية للعرب هي «غيابهم الكامل». وقد لاحظنا أن عملية التجريد التي تحدثنا عنها هي أيضاً عملية إسقاط لإنسانية هذا العربي وبالتالي تجريده من أية حقوق إنسانية. ولا شك أن هذه العملية تصل إلى قمتها في مقولة «العربي الغائب». ولكننا لا نصل إلى هذه الذروة مباشرة إذ يمكن ملاحظة استراتيجيات إدراكية مختلفة تسبق ظهور العربي الغائب سنسميها «تهميش العربي».

ويمكن القول إن عملية تهميش العربي تأخذ أساساً شكل إنكار أي وجود سياسي قومي للعرب عامة وللفلسطينيين على وجه الخصوص. فالصهاينة، في إدراكهم للثورات العربية ضدهم، ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرفاقهم أن الدافع لهذه الثورات ليس حب الأرض أو الوطن أو تمسك الإنسان بتراثه وإنما هي ثورة تعبر عن «التعصب الديني»(٢٠). وكان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب أحياناً باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطاني، ويصورون المسلمين باعتبارهم طيبين يمكن التفاهم معهم؛ وكانوا في أحيان أخرى يفترضون العكس، كما يشير لاكير، فيؤكدون أن العدو الحقيقي هم المسلمون أما المسيحيون فهم على استعداد أكبر للتعاون(٢١)، وأن الجماهير الفلسطينية مجرد غوغاء لا تحركها الدوافع القومية يتلاعب بها الإقطاعيون والأفندية(٢٢). وتمرد هذه الجماهير ليس تعبيراً صادقاً عن حركة

قومية خلاقة وإنما هو رد فعل تفسره الأوضاع الإقطاعية والاعتبارات القبلية الضيقة(٢٣).

وإلى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطيني أو العربي حيواناً أو مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة، ولذا، فإنه يمكن حل المشكلة العربية - حسب هذا التصور - في إطار اقتصادي ليس بالضرورة سياسياً(٢٤). ولعل أول الأمثلة على هذه الاستراتيجية الإدراكية هو رشيد بك، هذا العربي المخلق حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل **الأرض الجديدة القديمة**، والذي ظل يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد علينا بالنفع الكبير: لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، وكانت الهجرة اليهودية خيراً وبركة خاصة بالنسبة لملاك الأراضي لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة(٢٥). ظل لفيف من الصهاينة يؤمن إيماناً راسخاً بأنه يمكن التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية [بعد إعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم] (٢٦)... وكانت إحدى قناعات وايزمان الإدراكية أن التطور الاقتصادي في فلسطين سيؤدي إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية(٢٧).

وتعبيراً عن هذا الإدراك للعربي، يتواتر في الكتابات الصهيونية موضوع أساسي كامن يمكن تسميته «شراء فلسطين». فكثير من الصهاينة كان ينظر إلى الاستيطان الصهيوني باعتباره عملية شراء أراض بسعر أعلى من سعر السوق، وأنهم بذلك يكونون قد أعطوا العرب «حقهم» - والحق هنا قد عُرِّف تعريفاً اقتصادياً وحسب، وفلسطين هنا ليست وطناً وإنما سوق عقارية.

وتؤكد لنا يوميات هرتزل أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بإمكانية شراء فلسطين بالتقسيط المريح وبأسعار مخفضة. وحينما قامت ثورة البراق، عرض بعض الصهاينة شراء حائط المبكى.

ولعل موضوع شراء فلسطين متطرف بعض الشيء، ومع هذا يمكن القول بأن إدراك العربي كمخلوق اقتصادي ليس له حقوق سياسية أو وعي قومي كان بعداً أساسياً في الوجدان الصهيوني. ويؤكد والتر لاكير وغيره أن السياسة الرسمية للصهيونية في العشرينيات [ويمكن أن نضيف: وبعدها] هي عدم الدخول في مناقشات سياسية مع العرب وأن ينصب أي تفاوض على التعاون الاقتصادي وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسي.

ويلاحظ أن الاستراتيجية الإدراكية هنا تهدف لإسقاط الطبيعة القومية لردة الفعل العربية، لأنه لو تم تصنيفها على أنها قومية لنجم عن ذلك الاعتراف بأن هذا التشكيل القومي له أرض قومية وتراث قومي ومجال قومي ومجموعة من الحقوق القومية تنسف الادعاءات القومية للصهيونية.

ومع هذا، فإن القومية العربية كانت تفرض نفسها فرضاً على الإدراك الصهيوني كدافع محرك للجماهير العربية. ولذلك، فقد كان الصهاينة يتبنون استراتيجيتين أخريين أكثر حذاقة وصقلاً عن محاولة تهميش العربي ونزع الصبغة السياسية عنه. كانت الاستراتيجية الأولى هي الاعتراف بالطبيعة القومية للثورات الفلسطينية مع تفسيرها تفسيراً يجردها من مضمونها الإنساني أو السياسي ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة، وبالتالي تصبح هذه الطبيعة القومية ناقصة ولا تستحق هذه الثورات أن تحصل على كل الحقوق القومية. والقومية العربية – حسب هذا الإدراك – هي أساساً قومية مخلقة عملية للإنجليز وللقوى الخارجية(٢٨)

(وقد أشرنا من قبل، أثناء حديثنا عن العربي ممثلاً للأغيار، إلى مسألة الإدراك الصهيوني للتمرد العربي، وقلنا إن هذا التمرد في الإدراك الصهيوني نتيجة لتدخل القنصل الروسي.. أو الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي). ويذكر فلابان أنهم كانوا أحياناً يرون القومية العربية على أنها مجرد «ردة فعل» للاستيطان الصهيوني ليس لها وجودها الحقيقي، أو على أنها محاولة سلب للصهيونية ليس لها دينامية ذاتية مستقلة(٢٩).

وكما يذكر والتر لاكير، فإن الصهاينة العماليين، ممثلي العالم الغربي الاشتراكي وممثلي فكرة التقدم الاشتراكية كانوا يصفون القومية العربية بأنها قومية «رجعية»(٣٠)، أو كما قال ارلوزوروف، فإنها قومية تهيمن عليهما قوى الرجعية الاجتماعية والطغيان السياسي وأنها لم تنتج قيادات سياسية مثل صن يات صن أو غاندي(٣١).

أما الاستراتيجية الإدراكية الثانية في مجابهة القومية العربية كأمر واقع يفرض نفسه فرضاً، فهو الاعتراف بها كقومية كاملة القومية مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لا تضم الفلسطينيين. وقد ذكر فلابان أن إسهام وايزمان الأساسي للرؤية الصهيونية للعرب تتلخص في تمييزه بين العرب والفلسطينيين إذ كان يرى إمكانية التوصل إلى اتفاق مع القومية العربية بل ومساومتها في مقابل أن يتخلى العرب عن مطالبهم في فلسطين(٣٢) . كما ذكر فلابان أن وايزمان كان هو أيضاً صاحب نظرية أن فلسطين جزء هام من الوطن العربي الكبير(٣٣). وكان ارلوزوروف موافقاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان متشائماً بخصوص التعاون مع الفلسطينيين(٣٤). ويمكن أن نرى مفاوضات وايزمان/حسين ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب في هذا

الإطار. بل إن الصهاينة قدموا عام ١٩٣٠ مشروعاً طرحه موشيه بيكنسون، نائب رئيس تحرير جريدة **دافار**، ونال تأييد بن جوريون الحذر، كان في جوهره تعبيراً عن هذه الاستراتيجية - وكان المشروع يدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون جزءاً من اتحاد فيدرالي يضم الشرق العربي بأسره، وأن يكون الفلسطينيون أقلية داخل هذه الدولة التي تشكل أقلية داخل الاتحاد العربي(٣٥).

ولعل هذه الاستراتيجيات الإدراكية من أذكى الاستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها فرادة ودهاء وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية إحلالية لا تهدف إلى غزو العالم واستعباده (على طريقة النازية)، ولا حتى السيطرة على العالم العربي، وإنما الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون ساكنيها. فعملية التهميش هنا تصبح مقصورة على الضحية المباشرة وحسب، أي الفلسطيني، دون حاجة لاستجلاب عداء الآخرين سواء في الشرق أم الغرب.

العربي الغائب.

يمكن، بمعنى من المعاني، القول بأن كل الاستراتيجيات الإدراكية السابقة هي من قبيل محاولة تغييب العربي. فالعربي المتخلف، والعربي ممثلاً للأغيار،والعربي الهامشي والذي ليس له حقوق قومية هو عربي مغيّب مفتقد للحقوق الواضحة. وكل هذه المحاولات تعبير عن النزوع الصهيوني نحو إخفاء العربي. وكما أسلفنا، يصل الإدراك الصهيوني للعربي إلى ذروته ولحظة تحققه النماذجية في الإنكار الكامل لوجود العربي، فلا يُذكر بخير أو شر، ويتم إظهار عدم الاكتراث الكامل به بل والتزام الصمت حياله. وهذه الرؤية للآخر مرتبطة برؤية الذات وهي رؤية اليهودي

الخالص - وهو اليهودي المطلق ذو الحقوق المطلقة الخالدة التي لا تتأثر بوجود أو غياب الآخرين. بل إن وجود الحقوق اليهودية الخالصة يجعل حقوق الآخرين مجرد حقوق «خارجية وعرضية ومؤقتة»(٣٦)، وجودها مثل غيابها لا يؤثر في علاقة اليهودي بالأرض وحقوقه فيها. ومن هنا كان الشعار الصهيوني بأن فلسطين «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فمن عليها من بشر غائب لا وجود له، وإن كان له وجود فهو وجود عرضي وغير هام. (أما اليهود فشعب بلا أرض لأن حقوقهم اليهودية الخالصة تربطهم برباط لا تنفصم عراه بهذه الأرض وهذه الأرض وحدها، مما يؤدي إلى تفكك أواصر الارتباط بأية أرض أخرى). وكما قال بن جوريون «فلسطين بلد بلا سكان»(٣٧)، فامتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين، ولا يمكن للبشر، يهوداً كانوا أم عرباً، أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار «لأن محور مشكلة فلسطين» وفقاً لما قاله بن جوريون في كتابه بعث إسرائيل ومصيرها «يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة»(٣٨)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ وحتى آخره. وكما ذكر فلابان، فقد كان في إمكان بن جوريون أن يؤكد في خطاب له في أكتوبر ١٩٣٦ أنه لا يوجد أي صراع بين القومية اليهودية والقومية الفلسطينية لأن الأمة اليهودية ليست في فلسطين (بعد) ولأن الفلسطينيين ليسوا أمة(٣٩).

وقد فسر بعض المفكرين الصهاينة هذا الإصرار على العربي الغائب على أنه ضرورة نفسية واضحة؛ لأن تحقق الصهيونية كان يعني بالضرورة نقل (أو تغييب) العرب(٤٠). وسواء أكان ذلك ضرورة نفسية أم لا، فإن غياب العربي - كما أسلفنا - هو المحور الأساسي ونقطة التحقق الكاملة للاستعمار الصهيوني الاستيطاني الإحلالي الذي تنبع صهيونيته (نقل الشعب اليهودي إلى أرض

الميعاد) من إحلاليته (تفريغ الأرض من سكانها الأصليين). وذكر العرب، ولو في مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمني بهم، كما أن إخفاءهم وراء مقولة الأغيار ينطوي أيضاً على قسط من الاعتراف. ونفس القول ينطبق على التهميش، إذ إنه يمكن رؤية دماء الضحية سائلة، أما الإغفال الكامل فهو عملية نظيفة للغاية إذ يتم الذبح كما يتم مواراة الجثة!

والواقع أن رصد مقولة «العربي الغائب» وتوثيقها أمر صعب للغاية، لأنه لا يمكن رصد وتوثيق ما هو غائب بالطريقة التقليدية من خلال حشد الاقتباسات والنصوص وتحليلها. ومع هذا، هناك عدد كبير من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا في إطار مقولة «العربي الغائب». ويمكن أن يندرج تحت ذلك الإطار كل ذلك الحديث المستفيض عن «الأرض المقدسة» و«إرتس يسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد»، فهو حديث يستند في نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية. فعبارة مثل «إرتس يسرائيل» تغيب كلمة «فلسطين» تماماً، وبالتالي تغيب الفلسطينيين، وتؤكد الرابطة العضوية والأزلية بين اليهود وهذه الأرض. ونحن نجد أن الصهاينة يكتبون دراسات «علمية» رصينة عن الجماعة اليهودية في طبرية أو دور اليهود في الدفاع عن القدس إبان الحروب الصليبية. ويكتشف المرء في طي مثل هذه الدراسات أن عدد ساكني طبرية من اليهود لا يتجاوز المائة. وأنهم كانوا من اليهود المتصوفين، وأن المدافعين اليهود عن القدس، إن كان هناك مدافعون، لا يتجاوز بضعة أشخاص، ولعلهم وُجدوا أثناء المعركة بالصدفة. ولكن هذه التواريخ «العلمية» تنظر لهؤلاء باعتبارهم الأساس والجوهر وأن ما عداهم من جماعات بشرية فلا أهمية لها. والحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية

باعتبارها «عاليا» أي «صعود»، وعنهم باعتبارهم «معبيليم»، هو أيضاً حديث يفترض غياب العرب. بل ويمكن القول بأن المصطلح الصهيوني ككل (نفي، عودة، تجميع المنفيين... الخ) يفترض هذا اليهودي الخالص الذي يفترض بدوره غياب العربي.

وحينما يتحدث الصهاينة عن «التاريخ اليهودي»، فإنهم يتحدثون في واقع الأمر عن تشكيل يهودي حضاري عالمي مركزه إرتس يسرائيل (أي فلسطين)، وأن تاريخ هذه المنطقة الجغرافية هو «تاريخ يهودي» وحسب، أما التواريخ الأخرى (سواء تاريخ الكنعانيين منذ مئات السنين قبل التسلل العبراني أم التاريخ العربي لمئات السنين بعد الفتح الإسلامي وتواريخ كل الأقوام الأخرى التي كانت تعيش في أرض كنعان/ فلسطين) فهي كلها ثانوية بالقياس للتاريخ اليهودي! وأن الحديث عن «النفي والعودة» و«تجميع المنفيين» هو تعبير عن نفس الرؤية والإدراك. فنفي اليهود يعني أن الوجود العربي عرضي ومؤقت، و«العودة» تعني ضرورة «الخروج» أو «النفي العربي»، وأن «تجميع المنفيين» يعني تشريد الفلسطينيين: فأحزان صبرا وشاتيلا كامنة في الخطاب الصهيوني. وقد صدر بلفور من نفس المنطق والرؤية حينما تحدث عن الغالبية الساحقة لسكان فلسطين في بداية هذا القرن باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية». فالمنطق الصهيوني والمنطق الاستعماري اتفقا على الإدراك وعلى المخطط وهو تغييب العرب عن طريق تهميشهم وتحويلهم إلى كل مهمل قابل للنقل (مهما كان حجمه) وربما للإبادة إن سنحت الفرصة، ومن هنا الحديث في كتابات الصهاينة حتى الآن عما يسمّى «بالترانسفير» أو نقل العرب، أي تهجيرهم بالقوة، أي تغييبهم. إن قراءة أي نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني أمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، دون افتراض مقولة «العربي الغائب».

الصمت، إذن، بليغ في حالة العربي الغائب، ولكن ثمة نصوصاً وبرامج سياسية صهيونية تفصح رغم أنفها عن مقولة «العربي الغائب» الكامنة، ويحدث هذا حينما يفرض العربي الإمبريقي نفسه فرضاً، كوجود موجود، ككيان بيولوجي من الصعب تجاهله، كجثة ترفض أن تذوب في السحب أو تختفي تحت التراب. هنا يلجأ الصهاينة إلى تغييبه. ومن الأمور التي لها دلالة عميقة أن كثيراً من المفكرين الصهاينة (من المسيحيين واليهود) الذين لم يكونوا قد احتكوا بعد بالعرب بل ولم يعرفوا بوجودهم الفعلي، اقترحوا نقلهم أو إبادتهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن أن نذكر الحاخام كاليشر الذي لم يكن قد ذهب قط إلى فلسطين ومع هذا كتب عام ١٨٦٢ يتحدث عن «خطر العصابات العربية»(٤١)، وبدأ يفكر في طريقة إزاحتهم عن الطريق الصهيوني. ويمكن أن نُذكر سير لورانس أوليفانت ولورد وشافتشبري وغيرهم من الصهاينة المسيحيين الذين اقترحوا ضرورة نقل العرب ووضعوا الخطط لذلك. ثم يمكننا أن نشير إلى هرتزل، هذا الليبرالي الرقيق الذي تحدث عن طرد السكان الأصليين، سواء كان يتحدث عن مشروع استيطان صهيوني في قبرص أم في فلسطين، ومن بعده نوردو أو زانجويل الذي اقترح تهجير العرب على نمط هجرة البوير إلى الترانسفال وعلى نمط هجرة اليونانيين أو الأتراك كل إلى بلده(٤٢). ولم يكلّ الصهاينة التصحيحيون بطبيعة الحال والرؤية عن تأكيد ضرورة «تنظيف» الأرض من سكانها. وهي نفس العبارة التي استخدمها وايزمان «العقلاني» وغيره من الصهاينة لوصف طرد الفلسطينيين العرب عام ١٩٤٨(٤٣). وعلى كل كان وايزمان يرى في نقل وتغييب العرب حلاً للمشكلة الصهيونية منذ البداية(٤٤).

وكما أشار شلومو أفينيري فإن المفكر الصهيوني بوروخوف، والذي يقدم اعتذاريات اشتراكية ماركسية، فقد اقترح أن يكون مصير العرب هو الانصهار في المستوطنين الصهاينة، وهي طريقة ثورة اشتراكية مبتكرة للتغييب(٤٥). وقد تبعه الممارسون العماليون مثل بن جوريون وموتزكين وغيرهما. وقد قمت في كتابات أخرى. كما قام غيري، بتوثيق هذا الجانب في الإدراك والمشروع الصهيوني، ولا يوجد أي مبرر لتكراره هنا.

ولكن يجب أن نؤكد مرة أخرى أن الصهاينة لم يكونوا منفردين في ذلك، فالمنطق السائد في التشكيل الحضاري الغربي كان يستبعد الآخرين ويهدر كل حقوقهم نظرياً. وإذا كان إهدار الحقوق في حالة الصهيونية يأخذ شكل تغييب العرب، فإن هذا يعود إلى بنية الصهيونية ذاتها والتي تستمد خصوصيتها من الطبيعة الخاصة للمشروع الصهيوني. ولذا يجب ألا نفسر هذا الجانب من الإدراك الصهيوني تفسيراً أخلاقياً فننعت الصهاينة بأنهم أكثر شراً وانحلالاً خلقياً من الاستعماريين التقليديين أو الاستعماريين الاستيطانيين الغربيين، لأننا لو فعلنا ذلك لتصورنا أن المسألة تستند إلى الإرادة، وكأنه يمكن للصهاينة أن يتوبوا يوماً ما عن فعلتهم وأن يرعووا ويُبدوا الندم ويعودوا عما ارتكبوه من ذنوب وبذلك يغيب عن إدراكنا مدى حدة الصراع وأبعاده البنيوية الموضوعية.

اليهودي كعربي والعربي كيهودي.

وقبل أن نلخص نتائج هذا القسم، نود أن نذكر موضوعين أساسيين يستدعيان وقفة لطرافتهما إن لم يكن لأي شيء آخر، وإن كنا لا يمكن أن ننكر أيضاً قدرتهما التفسيرية والتحليلية،

وهذان الموضوعان الأساسيان هما «اليهودي كعربي»، و«العربي كيهودي».

ورغم أن الموضوعين نقيضان إلا أنهما ينبعان من إحدى الأفكار الأساسية المتواترة في الفكر الصهيوني، وهي فكرة تصفية الدياسبورا (أي أعضاء الأقليات اليهودية في العالم) وتجميع اليهود في الوطن القومي. فالصهيونية تنطلق من الإيمان بأن الدياسبورا غير جديرة بالبقاء، فيهود المنفى شخصيات عليلة مريضة طفيلية. ومما يجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوي على نقد متكامل متماسك لما يسمى بالشخصية اليهودية، وقد أصبح هذا الانتقاد جزءاً من الترسانة الإدراكية للصهيونية التي طرحت نفسها على أنها الحركة التي ستطبّع اليهود، أي تجعلهم قوماً طبيعيين وتخلصهم من الصفات السلبية المفترضة اللصيقة بشخصيتهم.

وقد تواتر الموضوع الأساسي الأول، أي «اليهودي كعربي»، في الكتابات الصهيونية التي صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني تماماً، وقبل أن تتبلور خريطته الإدراكية، وقبل أن يتحول العربي إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بلفور). وفي هذه المرحلة، كان من الممكن النظر إلى العربي على أنه الشرقي وممثل الأغيار الأصحاء الذين يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشفاء من أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك، يتحول العربي، كما أشار أمنون روبنشتاين، إلى رومانسي تحيطه غلالات أسطورية كثيفة(٤٦). ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، انطلاقاً من الرؤى الرومانسية التي كانت سائدة في أوربا آنذاك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نوع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (في مقابل الغرب المدنس المليء بالشرور). وإلى أن «العربي» هو الحكيم الذي سيعلمهم كل الأسرار

ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل. وقد تبنى هذه الرؤية أحد زعماء موجة الهجرة الثانية، ماثير ويلكانسكي، وتبعه في ذلك جوزيف لويدور (صديق الزعيم الصهيوني حاييم برنر والذي خرّ صريعاً مع صديقه في إحدى المعارك مع العرب). ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية والتي كانت تدعى الهاشومير كانت ترتدي زيّاً عربيا، وأن بعض أعضائها كانوا يعيشون مع البدو ليتعلموا طرقهم.

وكان الأدب الصهيوني في هذه المرحلة الأولى مفعماً بهذه الرؤية الرومانسية فكتب الكاتب الصهيوني موشيه سميلانسكي سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجة موسى» يصور فيها - وبإعجاب شديد - حياة الفلسطينيين الذين تحولوا في هذه الكتب إلى بدو ورعاة جائلين يذكرون القارئ بشخصيات العهد القديم. وفي قصة قصيرة كتبها زئيف يافيتس عام ١٨٩٢ يرد وصف لطفل يهودي في مستوطنة بتاح تكفا يتعلم من العرب كيف يدرب جسده على «الحرارة والصقيع وعلى الفيضانات والقحط».

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة مسرحية آرييه أورلوف/ أربلي التي نشرت عام ١٩١٢ في مجلة هاشيلواح (لسان حال الحركة الصهيونية في روسيا والتي كان يحررها ويصدرها أحاد هعام في أوديسا). تصور المسرحية جماعة من المستعمرين الرواد من موجة الهجرة الثانية كانوا يعيشون في مزرعة جماعية. وبطلة المسرحية هي المستوطنة الصهيونية ناعومي التي ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما بائعاً جوالاً عربياً يدعى «عليّ»! وحينما يقتل أحد الرواد شاباً عربياً ينتقم عليٌ لصديقه العربي المذبوح بأن يقتل الصهيوني! ولكن حتى هذا الفعل لا يغير من حب ناعومي له، وتنتهي المسرحية بمونولوج عاصف تقول فيه ناعومي

مخاطبة إخوانها الصهاينة: روحي تحتقركم أيتها الديدان المتحضرة. لقد تعلمت من العربي الضاري شيئاً، لقد تعلمت منه هذه الكلمات: الله كريم (وهذا هو عنوان المسرحية).

ويبدو أن هذا التيار كان شائعاً لدرجة كبيرة حتى أن مجلة هاشيلواح نشرت مقالاً للناقد الصهيوني جوزيف كلاوزنر وجه فيه اللوم للكتّاب الصهاينة المستوطنين في فلسطين «الذين يصورون كل اليهود في فلسطين كمتحدثين للعربية يشبهون العرب في كل شيء». وقد استمر هذا التيار وأخذ شكلاً مغايراً هو الدعوة إلى الوحدة السامية والإيمان بالأصول السامية المشتركة للعرب واليهود والتي عبّر عنها فكر الحركة الكنعانية التي أحرزت بعض الشيوع بين المثقفين الصهاينة بعض الوقت(٤٧).

ويجب ملاحظة أن هذا الموقف من العربي، كبدوي وكبطل رومانسي، يتسم هو الآخر بقدر كبير من التجريدية، فالعربي هنا ليس إنساناً حقيقياً تاريخياً وإنما مقولة رومانسية مجردة ليس لها حقوق متعينة. كما أن العربي هنا بدوي، أي إنسان متنقل غير مرتبط بالأرض، الأمر الذي يخدم المصالح الصهيونية ولا شك. فتمجيد العربي هو في واقع الأمر فصل له عن أرضه وعزله عن إنسانيته المتعينة ليصبح شيئاً يشبه الآثار الساكنة (التي نسميها الأنتيكة في مصر). والصهيونية في هذا، مرةً أخرى، لا تختلف كثيراً عن العنصرية الغربية التي كانت لا تمانع بتاتاً في الإعجاب «بالماضي التليد» و«الأمجاد الغابرة»، طالما أنها تظل شيئاً متحفياً مثل الآثار الفرعونية لا علاقة لها بالواقع، وطالما أنها لا تستخدم كمؤشر على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن ينجزه في المستقبل.

أما مقولة العربي كيهودي، فهي مقولة أكثر وضوحاً، فنحن إذا ما نظرنا لكثير من المقولات الإدراكية السابقة: العربي

كمتخلف، وتهميش العربي، والعربي كحيوان اقتصادي، والعربي كشخص يحركه التعصب الديني، والقومية العربية كقومية عميلة للإنجليز، للاحظنا أن هذه ذاتها هي صفات اليهودي في أدبيات معاداة اليهود في الغرب، والتي كانت تهدف إلى إسقاط حقوق اليهودي وطرده باعتباره شخصية طفيلية هامشية غير منتمية، وإلى إبادته في نهاية الأمر. وكما قلنا، كانت هذه المقولات جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية تشبعت بها وتبنتها وطبقتها على الآخر (أي يهود المنفى)، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صح التعبير، الآخر كامل الأخروية (أي العربي)، كمحاولة لتغييبه وتهميشه وتجريده وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المعادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي.

تلخيص ونتائج.

١ - تأخذ الخريطة الإدراكية أو الطيف أو المتصل الإدراكي الصهيوني للعرب الشكل التالي: العربي الحقيقي - العربي المتخلف - العربي ممثلاً للأغيار - العربي الهامشي - العربي الغائب، ويلاحظ الابتعاد التدريجي عن العربي الحقيقي والوصول إلى الذروة ونقطة التحقق وهي العربي الغائب عبر درجات متزايدة التجريد.

٢ - يلاحظ أن ثمة تلازماً لرؤية الذات ورؤية الآخر، ففي مقابل اليهودي ممثل الحضارة الغربية وحامل مشعلها يوجد العربي الشرقي المتخلف، وفي مقابل اليهودي الخالص صاحب الحقوق المطلقة نجد العربي الغائب الذي لا حقوق له على الإطلاق لأنه غائب تماماً من منظور الأرض المقدسة.

٣ - أطلقنا على هذا الإدراك أحياناً مصطلح «استراتيجية إدراكية» لا لأنه طريقة متعمدة في الإدراك (فمن وجهة نظر هذا البحث، لا يهم أن يكون الإدراك واعياً أم غير واع) وإنما لأنه إدراك تصوغه وتحدده مصالح المدرك وتحيزاته ومشروعه الاستيطاني. وقد كان هذا الطيف الإدراكي أساسياً بالنسبة للصهاينة، فقد زودهم بإطار تفسيري وفسر لهم الواقع بطريقة تتناسب مع هذه المصالح وسوغ لهم عمليات الاغتصاب والاقتلاع والقمع وأحياناً الإبادة، بل وحولهم إلى الضحية من وجهة نظرهم، وبالتالي أمكنهم الاستمرار في إنجاز مشروع استيطاني يتسم بالشراسة الفريدة إذ نحن لا نعرف مشروعاً استيطانياً إحلالياً آخر في القرن العشرين.

٤ - حاولنا في هذا الفصل أن نبتعد عن عملية التشهير بالصهاينة وهي عملية أثيرة لدى الكثير من الكتّاب العرب في حقل الصهيونية. فالتشهير له طبيعة عملية إعلامية، وله أهمية تعبوية بالنسبة للجماهير أو في مجال تحسين الصورة في الخارج، ولكنها لا تفيد كثيراً في عملية فهم الآخر والتنبؤ بسلوكه، وهو أمر أساسي في عملية إدارة الصراع. ونعتقد أن صانع القرار العربي لا بد وأن يأخذ الإدراك الصهيوني العربي في الاعتبار، ذلك لأن هذا الإدراك هو أحد المكونات بل والمحددات الأساسية للكيان الصهيوني. وأعتقد أن فشل مخابرات العدو عام ١٩٧٣ في التنبؤ بالهجوم العربي المجيد إنما كان نتيجة جمودهم الإدراكي، إذ إن الإنسان في نهاية الأمر يقع صريع تحيزه، والعربي الحقيقي القادر على أن ينهض وأن يمتلك ناصية الأسلحة الحديثة ويوقع الهزيمة بالمغتصب ليس جزءاً من ترسانة الصهاينة الإدراكية، ولذا لم «يتوقع» العدو ولم «ير» رغم أنه كان «يشاهد ويراقب ويسجل».

ومع هذا، هل يظل الإنسان الصهيوني قابعاً داخل خريطته الإدراكية، أم أنه ثمة لحظات إدراك للإنسان العربي الحقيقي؟ وما نتائج هذا الإدراك؟ وما هو أثر الإدراك الصهيوني الذي تشكل قبل عام ١٩٤٨ على الإسرائيليين؟ هذان هما السؤالان اللذان سأحاول الإجابة عنهما في الفصل التالي من هذا الكتاب.

هوامش
الفصل الثاني

(١) Richard Crossman, A Nation Reborn: The Israel of Weiz-man, Bevin, and Ben Gurion, (London: Hamish Hamilton, 1969, P. 58.

(٢) نفس المراجع، ص

(٣) Rapael Patai., ed, The Complete Diaries of Theodore Herzl, (vol), (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Trans. Harry Zohn, vol. 3, P. 1361.

وسيشار إلى هذا المرجع، من الآن فصاعداً بعبارة «يوميات هرتزل».

(٤) George Jabbour, Settler Colonialism in Southern Africa and the Mid-dle East (Beirut: Palestine Liberation Organization Research Cet-ter,1970), P. 28.

(٥) يوميات هرتزل، الجزء الأول، ص ٣٣٨ - ٣٤٣.

(٦) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ١٩٧٧)، ص ١٣٩.

(٧) Walter Lacquer, A History of Zionism (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1472), P. 217.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «لاكير».

(٨) Simha Flapan, Zionism and the Palestinians (London: Croom, Helm, 1979), P. 55 - 56.

وسيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «فلابان».

(٩) نفس المرجع، ص ٣٩.

(١٠) نفس المرجع، ص ٢٦.

(١١) نفس المرجع، ص ٧١.

(١٢) Harry Truman, Memoirs 2Vols, (Garden City, New York: Doubleday, 1955), Vol I, P. 159.

(١٣) فلابان، ص ٦٤.

(١٤) نفس المرجع.

(١٥) Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1971), P. 172.

(١٦) Ehud Ben Ezer, ed., (New York: Quadrangle The New York Times Book, 1974), P. 183.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «بن عيز».

(١٧) لاكير، ص ٤٧.

(١٨) فلابان، ص ٥٦.

(١٩) بن عيزر، ص ٣٢٤ – ٣٢٥.

(٢٠) لاكير، ص ٢٤٧.

(٢١) نفس المرجع.

(٢٢) نفس المرجع، ص ٢٥٠.

(٢٣) فلابان، ص ١٩.

(٢٤) نفس المرجع، ص ٦٩.

(٢٥) لاكير، ص ٢١١.

(٢٦) فلابان، ص ٦٥.

(٢٧) نفس المرجع، ص ٢٦.

(٢٨) نفس المرجع، ص ٦٥.

(٢٩) نفس المرجع.

(٣٠) لاكير، ص ٢٦٣.

(٣١) نفس المرجع، ص ٢٥٨.

(٣٢) فلابان، ص ١٩، ٣٩.

(٣٣) نفس المرجع، ص ١٩.

(٣٤) لاكير، ص ٢٥٨.

(٣٥) صبري جريس السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين (١٩٣١ - ١٩٣٦)، ٤ - محاولات التفاهم مع العرب»، شؤون فلسطينية (تموز - أغسطس ١٩٨٥) ص ٤٩.

(٣٦) Meir Ben-Horin, Max Nordau: Philosophern of Human Solidarity (New York: Conference of Jewish Social Studies, 1956), P. 199.

(٣٧) ايلون، ص ١١٥.

(٣٨) David Ben Gurion, Rebirth and Destiny Of Israel, (New York, Philosophical Library, 1954) P. 38.

(٣٩) فلابان، ص ١٣١.

(٤٠) بن عيزر، ص ٢٠٣.

(٤١) لاكير، ص ٢١٠.

(٤٢) نفس المرجع، ص ٢٣١.

(٤٣) Abdelwahab M. Elmessiri, The Land of Promise: A Critique of Political Zionism (New Brunswick, New Jersey: North American 1977), P. 143.

(٤٤) فلابان، ص ٨٢.

(٤٥) Shlomo avineri, The Making of Modern Zionism: The Intellectual Origins of the Jewish State (London: Weidenfeld and Nicolson, 1981, PP. 139 - 150.

(٤٦) Amnon Rubinstein, The Zionist Dream Revisited: From Herzl to Gush Emunim and Back (New York: Schocken Books, 1983), PP. 56 - 60.

سنشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعداً بكلمة «روبنشتاين».

(٤٧) لاكير، ص ٢٢٨.

الفصل الثالث
الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي

المفكر الصهيوني الروسي آحاد هعام من أوائل المفكرين الصهاينة الذين أدركوا العربي كإنسان حقيقي تاريخي، وقد أشرنا في الفصل السابق إلى احتجاجه منذ البداية على طريقة معاملة الصهاينة للعرب. ولقد نبههم إلى أن العرب - على عكس ما تدّعي الأسطورة الصهيونية - ليسوا غائبين، وهاجم مقاطعة الصهاينة للعمال العرب (في خطاب له بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣)(١)، باعتبارها محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل إدراك آحاد هعام الذروة حينما أدرك الحاخام الروسي أن حلم العودة إلى صهيون، كما فسره الصهاينة، وكما أخذ في التحقق «يؤدي إلى تدنيس ترابها بدم الأبرياء»، أي أنه رأى الجثة التي يحاول الصهاينة إخفاءها. ولذا، وعلى الرغم من أن فكر آحاد هعام فكر عنصري نيتشوي إلى أقصى درجة (فهو صاحب فكرة اليهود «كسوبر أمة»، وهو صاحب فكرة تحول فلسطين إلى مركز ثقافي لليهود واليهودية)، إلا أن العربي الحقيقي فرض نفسه فرضاً على وعيه، ولذا فإن الحاخام لم يملك إلا أن يقول: إن الإله قد أنزل بي العذاب إذ أمد في حياتي حتى أرى بعيني رأسي أنني قد حدت عن جادة الصواب.. إذا كان هذا هو الماشيح (المسيح المخلّص

اليـهـودي)، فـإنني لا أود رؤية عـودته!!»(٢)، أي إنه لا يود رؤية تحقيق الحلم (أو الكابوس) الصهيوني، فتحقيق الحلم يعني تغييب العربي، وتغييب العربي، كما رأى هو بنفسه، يعني القتل والقتال والدماء النازفة.

ومن أهم المفكرين والمستـوطنين الصـهـاينة الذين تخطوا التحيز الإدراكي الصهيوني ورأوا العربي في كل تركيبيته التاريخية والإنسانية إسحق أبشتاين، أحد كبار المسؤولين عن الاستيطان الصـهيوني في فلسطين، والذي حذر الصهاينة من سطحيتـهم وعجـزهم عن الغوص لباطن الأمور(٣)، والذي حاول أن يبين لهم أن الحق قد يكون في جانبهم من الناحية القانونية (السطحية) ولكن الموقف يصبح أكثر تركيباً إن تمت رؤيته في إطار سياسي أخلاقي(٤).

وقد حذر أبشتاين، في محاضرة له ألقاها عام ١٩٠٥ على بعض مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (ونشرت فيما بعد في هاشيلواح عام ١٩٠٧)، من الموقف الصهيوني الشائع (التبريري في واقع الأمر) القائل بأن فلسطين غير مفلوحة بسبب «نقص في الأيدي العاملة أو كسل السكان» وبيّن أنه «ليس هناك حقول مقفرة، بل على العكس، يحاول كل فلاح أن يضيف إلى أرضه من أرض البور المجاورة لها.. وعندما نشتري قطعة أرض كهذه، نبعد عنها مزارعيها السابقين تماماً.. فنحرم بهذا أشخاصاً بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة. ونسلب لقمة عيشهم.. ولا يزال حتى اليوم يرن في أذني نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، وهي مستوطنة روش بينا، وانتقلن للسكن في حوران شرقي نهر الأردن. فقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وراءهم باكيات يملأن السهل بنحيبهن. وللحظات، وقفوا وقبلوا

... إن شراء [أراضيهم] على هذا الشكل يترك في قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيذكرون دائماً ذلك اليوم الملعون الذي انتقلت فيه أملاكهم إلى أيدي الغرباء.. لأنه إذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليبهم، فهم العرب.. وفي النهاية سيعملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب...». وبعد أن يرسم أبشتاين صورة الفلاح العربي الحقيقي الذي يحب أرضه ويكد ويتعب من أجلها، يضعه في إطار سياسي عربي تاريخي واسع: «إن هذا الشعب، والذي لم تستنفد المدنية حتى الآن قواه وتضعفه، ليس إلا جزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذي يسيطر على كل المناطق المجاورة.. سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر.. ولهذا من المستحسن أن نعرف من هو الفريق الآخر... وأن نأخذ بالحسبان قوتنا والقوى التي تواجهنا. ويمكننا القول إنه، حتى الآن على الأقل، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير. ولكن لا حاجة لهذا الشعب بمثل هذه الحركة.. إنه كبير وكثير ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت أبداً ولم ينقطع وجوده يوماً...

... ويفوق في تطوره الجسدي كل شعوب أوروبا.. ينبغي ألا نستخف بحقوقه، وألا نستغل ضده خبث بعض إخوته الذين يظلمونه. لا تتحرشوا بأسد نائم! ولا تأمنوا جانب الرماد الذي يغطي الجمر، فقد تنطلق شرارة تسبب حريقاً لا يطفأ». ولم يكتف أبشتاين بالشكوى والنحيب على طريقة آحاد هعام بل قدم توصيات محددة، فاقترح على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتفاق مع «حزب الفلاحين» وبعد الحصول على موافقتهم، لأنهم أكثرية سكان البلد(٥). كما اقترح محاولة «إقامة تحالف عربي صهيوني بدلاً من التحالف التركي

الصهيوني» المقترح آنذاك(٦).

ويلاحظ أن إدراك أبشتاين للعربي يختلف جذرياً عن الإدراك الصهيوني العام، وكان إدراكاً ولا شك شجاعاً لم يحاول تهميش العربي أو تغييبه، ولم يختبئ وراء أية مقولات ضبابية كاذبة، إذ اعترف بحقيقة القومية العربية والطابع السياسي القومي للنضال الفلسطيني، وبيّن غباء مقولة «شراء فلسطين».

ولم يكن إدراك العربي الحقيقي أمراً يقتصر على الشخصيات الصهيونية المبهمة أو الهامشية مثل آحاد هعام أو أبشتاين، بل إننا نجد أن كثيراً من زعماء الصهيونية ومفكريها قد عاشوا لحظة الإدراك هذه. فهرتزل على الرغم من عمق سطحيته (إن صح التعبير) وعلى الرغم من عدم فهمه لكثير من الأفكار السياسية في عصره، كان قادراً على إدراك تاريخية الواقع العربي وتركيبيته. وقد أشرنا إلى زيارته إلى القاهرة وإدراكه أن الاستعمار ذاته يخلق الجرثومة التي تقضي عليه، وذلك لأنه «يعلّم الفلاحين الثورة»(٧) . ثم أبدى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة البسيطة. ونلاحظ هنا أن هرتزل لا يجزئ العرب أمامه إلى مسلمين ومسيحيين أو أثرياء أو فقراء، وإنما يدرك وجود تيار تاريخي له ماضٍ وحاضر ومستقبل، وأنه تيار سياسي قومي يهدد أعتى الإمبراطوريات.

وحتى بن جوريون ذاته لم يفلت من لحظة الإدراك هذه. ففي عام ١٩٣٨ كتب التقييم المستفيض التالي لثورة الفلسطينيين آنذاك، والذي سنقتبسه برمته نظراً لأهميته: «ابتداءً، أحب أن أبدد كل الأوهام التي سادت بين الرفاق والخاصة بأن الإرهاب [العربي] هو مسألة مجموعة من العصابات ممولة من الخارج.. نحن هنا لا نجابه إرهاباً وإنما نجابه حرباً، وهي حرب قومية أعلنها العرب

علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب. هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبل اليهود، ولهذا هم يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. ومنذ زمن الشيخ عز الدين القسام، أصبح واضحاً لي أننا نجابه ظاهرة جديدة بين العرب. هذا ليس النشاشيبي أو المفتي، فهذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية. إن الشيخ القسام كان زيلوتياً [غيوراً دينياً]، على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى. ونحن اليوم لا نواجه واحداً وحسب مثله وإنما نواجه المئات بل الآلاف [أمثاله] ووراءهم كل الشعب العربي. نحن نقلل من أهمية المعارضة العربية في أحاديثنا السياسية في الخارج، ولكن ينبغي علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا. إن احترامي للحقائق السياسية هو الذي يجعلني أصرّ على ذكر الحقيقة. والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدي بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا في فلسطين.. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، إذ إنه إذا ما نال من أحدهم التعب سيحل آخرون محله. فالشعب الذي يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعاً... فمن الأيسر لهم أن يستمروا في الحرب وألا يكلّوا ولا يتعبوا... والعرب الفلسطينيون ليسوا بمفردهم، فالسوريون سيمدون لهم يد المساعدة. فمن وجهة نظرنا هم غرباء، ومن وجهة نظر القانون هم أجانب، ولكن بالنسبة للعرب هم ليسوا أجانب على الإطلاق... إن مركز الحرب هو فلسطين، ولكن أبعادها أوسع من ذلك بكثير. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان ونُدافع عن أنفسنا، فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب، فبالنسبة لأمننا وحياتنا نحن نقوم بالدفاع عن أنفسنا، ووضعنا المعنوي

والجسدي ليس سيئاً.. ويمكننا مواجهة العصابات.. وإذا ما سمح لنا بتعبئة كل قوانا فإنه لا يوجد أدنى شك بالنسبة للنتيجة... ولكن القتال ما هو إلا جانب واحد للصراع الذي هو صراع في جوهره سياسي. ومن الناحية السياسية، نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن ونأخذها منهم، حسب تصورهم... يجب ألا نظن أن الإرهاب هو نتيجة لدعاية هتلر أو موسوليني.. قد يكون هذا عاملاً مساعداً ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب أنفسهم»(٨).

لقد اقتبسنا كلمات بن جوريون بشيء من التفصيل نظراً لجديتها وجدتها، فتحليل بن جوريون للوضع في فلسطين لا يختلف إلى حدّ كبير عن أي تحليل ثوري عربي أو إسلامي لطبيعة الصراع. وهو يضع القضية في إطارها السياسي القومي الصحيح، ويراها في بعدها التاريخي.- في الماضي والحاضر والمستقبل. والأكثر من هذا أن كلماته تدل على احترام لعدوه وعلى تمييز بين الأفندية والشيوخ من جهة (أي القيادات التقليدية) والقيادات الفدائية الجديدة من جهة أخرى. وقد عبر موشيه شاريت هو الآخر في أحاديثه ويومياته وخطبه عن إدراكه للعربي الحقيقي. ففي خطاب له في ٩ يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الماباي، عرّف الثورة العربية بأنها ليست ثورة الأفندية الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية إنما هي ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقة، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التي تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة لهم هي وحدة مستقلة لها وجه عربي، وهذا الوجه آخذ في التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية،

وها هي ذا قد أضحت يهودية. ورد الفعل لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفي ٢٨ سبتمبر من نفس العام، كان شاريت قاطعاً في تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة(٩)، كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات في حركة المقاومة(١٠)، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة وبيّن أن من أهم دوافع الثورة الرغبة في إنقاذ الطابع العربي الفلسطيني وليس مجرد معارضة اليهود(١١).

بين الإدراك والسلوك.

من كل ما تقدم يمكن القول إن إدراك الصهاينة للعربي كان يتخطى في بعض الأحيان التحيز والمصلحة المباشرة وسحب الاعتذاريات وصولاً إلى الحقيقة التاريخية الحية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه: لم لم تقم هذه اللحظات الإدراكية، رغم ندرتها، بدور في تشكيل الرؤية الصهيونية؟ وإذا لم تقم بدور في تشكيلها.. فلمَ لم تدخل عليها قدراً من التركيبية على أقل تقدير؟!

لعل الإجابة على هذا السؤال عسيرة بعض الشيء لأننا هنا لا نتعامل مع عالم الأفكار ولا حتى مع كيفية نشوئها وتحددها واكتسابها ملامح محددة، وإنما نتعامل مع مدى تأثير الأفكار في الواقع، وهذه الرقعة التي تلتقي فيها الأفكار بالواقع رقعة مبهمة غامضة ضبابية ليس لها قوانين محددة.. وإن كانت تحكمها قوانين، فإنه لم يتم اكتشافها بعد.

ومع هذا لن يصيبنا القنوط، وسنحاول أن نجيب على الأسئلة التي طرحناها، ولكن ينبغي مع هذا أن ننبه القارئ

للطبيعة الذهنية لمحاولتنا التفسيرية. ويجب أن نؤكد ابتداءً أن الإدراك مهما كان عميقاً وجذرياً فإنه لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل أو سلوك بعينه. وإذا أردنا أن نكون أكثر حيادية ووضوحاً لقلنا إن الإدراك الجذري، باعتبار أنه يصل إلى الواقع وجذوره، جذري وحسب، وقد يؤدي إلى راديكالية ثورة تطمح إلى تغيير الواقع أو إلى راديكالية فاشية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسة. ويمكن لإدراك ما أن يتحدى الرؤية القائمة ولكنه يمكنه أيضاً أن يعمقها، ويتوقف ذلك كله على مركب هائل من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية والعصبية. ورغم أن إدراك العربي الحقيقي يمثل لحظة كشف لنفس الحقيقة بالنسبة لكل الصهاينة، إلا أنه يترجم نفسه إلى استجابات صهيونية وأشكال سلوكية متباينة سنحاول دراستها بتقسيمها إلى ثلاثة أنماط أو نماذج:

١ - هناك نمط من الصهاينة أدرك طبيعة الجرم الكامن في عملية تغييب العرب هذه فتنكر لرؤية الصهيونية تماماً وتخلى عنها وعاد إلى أوربا. وهناك كثيرون من حزب بو عالي صهيون (عمال صهيون) عادوا إلى الاتحاد السوفييتي بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا في الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا في الإرهاب الصهيوني. ولكن هؤلاء قلة نادرة على ما يبدو، وعلى كل فإنهم يختفون تماماً من التواريخ الصهيونية ومن الإدراك الصهيوني (اليهودي الغائب؟). ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب أو بعيد في البرنامج السياسي الصهيوني أو سلوك الصهاينة نحو العرب. ولكن لعلنا لو أعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين لوجدنا أن هذا النمط أكثر شيوعاً مما نتصور، ولعله قد يكون من المفيد والطريف في ذات الوقت أن يقوم أحد الباحثين العرب

بكتابة دراسة في هذا الموضوع.

٢ - وهناك نمط ثان من الصهاينة أدرك العربي الحقيقي ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانباً، وبذل محاولات يائسة من أجل إعادة صياغة المشروع الصهيوني بطريقة تستوعب وجود العربي الحقيقي وأخذه في الحسبان.

ولكن من الملاحظ أن مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج إلى شخصيات مبهمة وهامشية (من وجهة نظر صهيونية) تنتمي إلى منظمات هامشية وتدافع عن رؤى هامشية لا تؤثر على المركز أو الممارسات الأساسية. ولعل سيرة أبشتاين وآرثر روبين (وهو مسؤول صهيوني آخر عن الاستيطان) وغيرهما خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهاينة، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربي، أدركوا مدى تركيب الموقف فطرحوا صيغاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية «بريت شالوم» ثم جمعية «إيحود» لإجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومي ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت، في نهاية الأمر، تعبيراً عن ضمير معذّب أكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ماجنيس من أكثر الشخصيات المأساوية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، فقد أدرك الخلل العميق في وعد بلفور منذ البداية بإنكاره وتغييبه للعرب، وأدرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب؛ ولذا قضى حياته كلها يحاول أن يصل إلى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الإدراك النادرة دون جدوى. وانتهى به الأمر إلى أن تنكّر له مجلس الجامعة العبرية التي كان يترأسها (الصهيوني الهامشي؟). ويمكن أن نذكر في هذا السياق آحاد هعام نفسه الذي تعلم أن يعيش مع التناقض الحاد، بعد أن رأى الدماء العربية

النازفة وبعد أن ولول وكأنه أحد أنبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لما اقترف من آثام، ومع هذا نجده بعد ذلك في لندن مستشاراً لحاييم وايزمان، في الفترة التي سبقت إصدار وعد بلفور، يسدي له النصح بخصوص كيفية الاستيلاء على فلسطين، دون أن يذكّره من قريب أو بعيد بالعربي الحقيقي أو بالدماء النازفة.

وينتهي به المطاف إلى أن يستقر هو ذاته على الأرض الفلسطينية، بكل ما يحمل ذلك من معاني اغتصاب وقهر. ولكنه بعد وعد بلفور، ظلت تخامره الشكوك، حتى وهو في فلسطين، بخصوص المشروع الصهيوني، وظل موقفه مبهماً حتى النهاية. وهكذا نجد أن محاولة إعادة صياغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربي الحقيقي أدى إلى تهميش مثل هؤلاء الصهاينة ودفع بهم بعيداً عن المركز وعن مجال صنع القرار، ولذا لم تظهر سياسة صهيونية فعالة تجسد الإدراك الصهيوني للعربي الحقيقي!

٣ - وهناك أخيراً النمط الثالث، أكثر الأنماط شيوعاً، وهو النمط الذي يؤدي إدراكه للعربي الحقيقي إلى مزيد من الشراسة الصهيونية.

وهنا يجب أن نطرح هذا السؤال: لم هذه الاستجابة الشرسة من جانب هؤلاء؟ والأهم من ذلك: بما نفسر شيوع هذا النموذج؟ ومرة أخرى سنحاول أن نطرح التفسيرات الأخلاقية جانباً، فهي تفسيرات نهائية مطلقة ولن يفيدنا كثيراً أن نقول إن استجابة هذا النمط الثالث نابعة من عمق الشر الكامن في أنفسهم (فنسبة الشر واحدة تقريباً في كل البشر). ولذا، فلنحاول أن نصل إلى تفسير يعمق إدراكنا بتفاصيل الواقع وآلياته.

لقد ذكرنا من قبل أن ثمة أسباباً مختلفة هي التي تحدد

كيفية تحول إدراك ما إلى سلوك، وقلنا إنها أسباب سياسية واجتماعية ونفسية وعصبية. ولكن لا يمكن لنا، في حدود هذا البحث، أن نغوص في الجوانب العصبية أو النفسية (مع إدراكنا لأهميتها)؛ لأن مثل هذا العمل يتطلب معرفة حقائق ومعطيات ليست متوفرة للباحث الآن. كما أن الجوانب العصبية والنفسية قد تفسّر الاختلافات الفردية بين الزعماء والمفكرين الصهاينة، ولكنها لا يمكنها أن تفسر بأية حال الاختلافات العامة ذات الطابع السياسي والاجتماعي.

ولذا، قد يكون من المفيد أن نحاول التفكير في الأسباب السياسية والاجتماعية وحدها. وقد بينا من قبل أن التحيز الأيديولوجي هو أحد المحددات الأساسية للإدراك، ويمكننا هنا أن نضيف عنصراً آخر وهو ميزان القوى: فقبل عام ١٩٤٨، كانت الإمبريالية الغربية مهيمنة على معظم العالم بما في ذلك العالم العربي، ولم تكن القومية العربية قد تحددت معالمها بعد كقوة يحسب حسابها. ولم يكن الوضع في فلسطين أحسن حالاً، إذ إن القوى الاجتماعية هناك لم تكن هي الأخرى قد تبلورت، وبالتالي لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثوري نضالي قادر على تعبئة الجماهير من كل الطبقات والأديان ضد عدو يهددها كلها بالطرد والفناء، أي إن القوى العربية كانت غير قادرة على الدخول في حوار مسلح مع العدو. لكل هذا كان العربي الحقيقي، حينما يظهر على شاشة الوعي الصهيوني، يبهت ويشحب ثم يصبح هامشياً ويختفي أمام موازين القوة التي لم تكن في صالحه. فلو أن هذا العربي الحقيقي كانت تسانده القوة اللازمة لثبت الإدراك في وعي الصهاينة ولظل العربي الحقيقي حقيقياً ثابتاً يقام له حساب ووزن، ولتحول هذا الإدراك إلى برنامج سياسي وإلى سلوك محدد يأخذ

العرب في الحسبان. ولربما أمكن حينئذٍ لشخصيات صهيونية مثل أبشتاين أن تصبح الشخصيات القيادية صاحبة القرار. ولكن العربي كان ضعيفاً وأصبح من الممكن تغييبه أو تهميشه. إن ما أقترحه، من الناحية المنهجية، هو أن نرى بنية الإدراك وشكله (الطيف الإدراكي) لا في ضوء التحيزات الأيديولوجية وحسب وإنما في ضوء بنية القوة الموضوعية (أو موازين القوى) إذ لا يمكن أن نرى الواحد دون الآخر ولا يمكن تفسير الواحد دون الآخر، فالعربي ككيان إمبريقي كان موجوداً أمام الجميع، والإحصائيات لا بد وأنها كانت متوافرة، والصراعات كانت دائرة، واستعدادات الصهاينة «للدفاع عن أنفسهم» ضد العرب كانت قائمة على قدم وساق منذ أول يوم. ومع هذا، ظهر العربي متخلفاً وهامشياً في وجدان الصهاينة، وحينما ظهر حقيقياً فقد تقرر تهميشه وتغييبه - حسبما يتطلب التحيز الأيديولوجي الذي تسانده القوة. هذا هو ما يفسر موقف النمط الثالث (والأكثر شيوعاً) من الصهاينة الذين يسمون «المتطرفين» والذين نسميهم «الواقعيين». فهؤلاء أدركوا العربي الحقيقي فأصبحوا أكثر ضراوة وشراسة بسبب هذا الإدراك لا رغماً عنه. وعلى ذلك فإن «الآخر» إذا أصبح حقيقيّاً فإنه يشكل تهديداً حقيقيّاً للذات، أما إذا كان هامشيّاً فإنه لا يمثل خطراً كبيراً. إن الصهاينة المتطرفين هم أكثر الناس إدراكاً لخطورة العربي الحقيقي ولطبيعة المشروع الصهيوني ولموازين القوى في ذات الوقت.

الجدار الحديدي.

ولنضرب مثلاً على ذلك بزعيم الحركة الصهيونية التصحيحية فلاديمير جابوتنسكي الذي أدرك منذ البداية أن

الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض وبين العرب أمر حتمي، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية أو الحديث عن اليهودي كعربي أو الحقوق اليهودية الأزلية، فقد كان هو ملحداً علمانياً يؤمن بالقومية كقيمة مطلقة، كما لم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو وراء الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السلاح، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة «تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الأوروبيون في كينيا وفي كل مكان»(١٢)، ومعنى ذلك أن جابوتنسكي قد طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيوني. فالعرب، حسبما صرح، لن يقبلوا بالصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة جدار حديدي(١٣).

ونفس النتيجة توصل إليها بن جوريون إذ إن إدراكه للعربي الحقيقي والتزامه في ذات الوقت بالرؤية الصهيونية وحقوق اليهودي الخالص جعله يدرك أنه لا مناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا، لم يبحث الزعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مستحيل، كما أنه لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ولا شك سراب. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، إن هو إلا وسيلة وحسب «أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل إلى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض... ولذا فإن الاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن،

[فالعرب] لن يستسلموا في إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولي عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم في الاضطرابات التي يثيرونها أو التمرد الذي يقومون به وحسب، وإنما ينجم عن نمونا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة] في هذا البلد». ثم استمر يقول: «لا يوجد مثل واحد في التاريخ أن أمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]... إن تشخيصي للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأنني أؤمن بالقوة، قوتنا التي ستنمو، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه»(١٤). وهكذا تم عقد اتفاقيات السلام مع العرب.

وماذا عن شاريت الذي عرف العربي الحقيقي عن قرب وكتب عنه مدافعاً. هنا أيضاً سنجد أن المثل الأعلى الصهيوني الذي تسانده القوة يفرض نفسه عليه ويحدد له الواقع، كما يحدد له طريقة سلوكه. ولذا صرح قائلاً: «إن معاناة العرب لا تهمنا لأننا سنحقق قوميتنا [قومية اليهودي الخالص]، ويمكنهم هم أن يحصلوا على بلاد أخرى. نحن نهدف إلى إنشاء دولة ولكن يجب ألا نستخدم هذه الكلمة»(١٥) . وهو أيضاً يتبنى سياسة الجدار الحديدي، شأنه في هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكي، يقول: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا...

... ولكني أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة، وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية»(١٦)..

وهكذا يمكن القفز من العربي الحقيقي إلى العربي الهامشي ومنه إلى العربي الغائب، كما يمكن القفز من يهودي

المنفى إلى اليهودي الخالص، أي القفز من الواقع إلى المثل الأعلى الصهيوني المتحيز، عن طريق العنف والقوة. وكلما زاد العربي في الوعي الصهيوني لا بد وأن تكون القوة أكثر ضراوة لسد الهوة بين الحقيقة والمثل الأعلى، هذه هي بنية الأيديولوجية: هذه هي طبيعة الإدراك: هذه هي موازين القوى: وهاكم هي الوسائل. وقد طرح أحد الصهاينة الذين أدركوا وجود العربي الحقيقي السؤال التالي في أحد المؤتمرات الصهيونية: «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب أم لا؟»(١٧).

ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقي كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث: فهل المسألة مسألة «إرادة» و«رغبة»، أم أنها مسألة بنية فكرية تحوي داخلها الحد الأقصى من العنف؟ وحينما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً تسانده القوة.. فهل يمكن لإرادة الأفراد آنذاك أن تتحكم فيها؟ أم أنها تتخطى تلك الإرادة وتصبح لها ديناميكية مستقلة تدوس كل من يقف في طريقها؟

ويمكن لوايزمان أن يساعدنا في الإجابة عن هذا السؤال، فهو كان يدرك تماماً أن الصراع موضوعي، له بنية مستقلة عن إرادة الأفراد، وأنه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التي تحاول تغييب العربي، بحيث يمكن لهذا العربي تحقيق وجوده، ولنقل داخل إطار حكومة ديموقراطية، فإن لمثل هذا الوضع عواقبه الوخيمة إذ إنه سيؤدي إلى «سيطرة العرب على الأمور».

إن هذه الحكومة ستتحكم في الهجرة والأرض والتشريع، وبذا سيحقق الصهاينة السلام، ولكنه «سلام المقابر»(١٨). والصهاينة، شأنهم شأن كل من في موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم وإنما للآخرين. ولذا، لا بد من إسقاط العربي الحقيقي، فإذا فرض نفسه على وعي الصهاينة فإنه لا بد

من تهميشه وتهشيمه وتغييبه. وإذا طفا هذا العربي مرة أخرى على سطح الوعي، فإن ردة الفعل لا بد وأن تكون مـزيداً من التطرف في مواجهة الخطر الحقيقي من العربي الحقيقي، ولذا فإن الاتفاق الذي يتحدث عنه جابوتنسكي ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقاً مع العربي الحقيقي إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو ترويضه عن طريق القوة والجدار الحديدي، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها تحيز الآخر وإدراكه. وهذه رؤية ولا شك واقعية: إذ كيف يمكن أن نتوقع من العرب أن يرضخوا طواعية لرؤية تلغي وجودهم؟

الاستجابة العربية.

وهذا ما أدركه «المتخلفون» المغيبون منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن الحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون أن الصهاينة قد أتوا تحت راية الاستعمار الإنجليزي وبمساعدة جيوشه وبوارجه، وأن وعد بلفور قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل عابر إلى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، أي إن الصياغة اللفظية ذاتها قد قامت بتهميشهم وتغييبهم على مستوى المخطط، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب غافلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبري أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التي تستبعدهم وتستعبدهم وتغييبهم. وفي علاقاتهم اليومية مع مؤسسات إدارة الانتداب، كانوا يعرفون أن بوابة وطنهم قد فتحت على مصراعيها ليهود الغرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بغضّ النظر عن النوايا الطيبة لدى بعض الصهاينة تجاه العربي الحقيقي (مهما خلصت النية) وبغض

النظر عن مدى جديتهم في دعاويهم (مهما بلغت درجة الجدية)، فإن الواقع الذي كان آخذاً في التشكل كان واقعاً صراعياً، فالصهاينة كانوا يهدفون دائماً إلى زيادة عدد اليهود في فلسطين وإلى إقامة كيان اقتصادي اجتماعي (عسكري) منفصل، ومهيمن في نهاية الأمر.

وقد وصف نجيب عازوري، المؤلف الفلسطيني العربي المسيحي، الذي كان أول من أدرك حقيقة ما يحدث الوضع بقوله «الصراع سيستمر إلى أن يسود طرف على الآخر»(١٩). وهذا الرأي ليس رأياً متشائماً ينكر مثاليات البشر وإنما هو رأي يحكم على هذه المثاليات في ضوء الطموحات والممارسة، وفي ضوء ما تشكل في الواقع بالفعل، ونحن إن لم نفعل ذلك أصبح المثل الأعلى ضباباً يغشي الأبصار وليس منارة تضيء للإنسان طريقه وتساعده على تغيير واقعه إلى واقع أفضل. وهذا ما قاله أحد القادة الفلسطينيين لأحد أعضاء جماعة بريت شالوم من دعاة السلام مع العرب: «أحب أن أخبرك بكل صراحة أنني أفضل أن أتعامل مع شخص مثل جابوتنسكي على التعامل معك. أعرف تماماً أن جابوتنسكي هو عدونا اللدود وأننا ينبغي أن نحارب ضده، بينما يبدو أنك صديقنا. ولكن، بكل صراحة، لا أرى أي فارق بين هدفك وهدف جابوتنسكي. أنت أيضاً تتمسك بوعد بلفور والوطن القومي والهجرة بلا قيد ولا شرط وشراء اليهود للأرض، أي بكل ما هو بالنسبة لي مسألة حياة أو موت»(٢٠).

إن ما يقوله العربي هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس تبنياً لرؤية داروينية اجتماعية تشبه رؤية الصهاينة التي ترى أن الواقع هو حلبة لصراع الجميع ضد الجميع، وإنما هي تعبير عن محاولة لفهم الآخر في ضوء فكره وسلوكه -

فإذا كان القول مشرقاً عادلاً والفعل مظلماً ظالماً فلا مناص من أن نضع النقط على الحروف بل يكون من الأفضل في هذه الحالة أن نتعامل مع عدو تتطابق أقواله المظلمة مع أفعاله الظالمة، فهذا الموقف يتسم، على الأقل، بفضيلة الوضوح.

وقد تنبه أحد زعماء حزب الاستقلال في فلسطين إلى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، مهما بلغت من اعتدال، رؤية في نهاية الأمر وهمية (أيديولوجية بالمعنى السلبي للكلمة) وأن أي تحقق لها يعني سلب حقوق العرب. ولذا حينما كتب له يهودا ماجنيس يقترح إمكانية التخلي عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتي محدود في فلسطين، رد عليه قائلاً: «لا أرى أي شيء في اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب الذين لن يسمحوا لأحد أن يقاسمهم حقوقهم الطبيعية.. أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة.. ولذا فإن من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين العربي واليهودي»(٢١).

وكان العرب يدركون تماماً أن الحديث العذب عن التقدم وخلافه إنما هو حديث عن التغييب وعن سلب الوطن. إن التقدم في إطار غير متزن من القوة لصالح المغتصب يعني أن العربي سيفقد كل شيء، خاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربي ككيان تاريخي وإنما كمخلوق اقتصادي. ولذا، فإن كثيراً من الشعوب المقهورة تغير استراتيجيتها التحررية. وبدلاً من البحث عن التقدم، تفضل الدفاع عن البقاء أو «التشرنق» إذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصري الدكتور شكري عياد.

ولعل هذا هو الذي يفسر رفض موسى العلمي لكلمات بن جوريون حين تقابلا عام ١٩٣٦ في منزل موشيه شاريت. فطبقاً لما

جاء على لسان بن جوريون، بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التي أعدها عن المستنقعات التي يجري تجفيفها، والصحارى التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم على الجميع، ولكن العربي قاطعه قائلاً: «اسمع يا خواجة بن جوريون، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة لمائة عام أخرى، أو لألف عام أخرى إلى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص». وهنا مارس بن جوريون إحدى لحظات الإدراك النادرة ولم يسعه إلا الاعتراف بأن العربي [الحقيقي] كان يقول الحقيقة، وأن كلماته هو [اليهودي الخالص] بدت مضحكة وجوفاء أكثر من أي وقت مضى(٢٢).

وهكذا أيقن العرب أنه لا يمكن التصالح أو التفاهم أو الاستفادة من مستوطن صهيوني ينظر إلى الواقع من خلال خريطة إدراكية تنكر وجودهم ابتداءً أو تهميشهم على أحسن تقدير، وهو إدراك تسانده موازين القوى العالمية والمحلية التي لم تكن في صالح أهل البلد. وقد أثبت مسار التاريخ صدق حدسهم ودقة تقييمهم للموقف.

هوامش
الفصل الثالث

(١) تم اقتباسه في:

Hans Kohn, "Ahaad Haam" in Gary Smith, ed Zionism: The Dream and the Reality: A Jewish Critique (New York, Barnes and Noble, 1974), P. 23.

(٢) Published in Haartz in Sept 8, 1922, Moshe Menuhin and Cited by Jewish Critics of Zionism (New York, Arab Information Centere), P. 2.

(٣) صبري جريس، تاريخ الصهيونية.

(٤) لاكير، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٥) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ص ١٤٠.

(٦) لاكير، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٧) يوميات هرتزل، الجزء الرابع، ص ١٤٤٩.

(٨) فلابان، ص ١٤٠ - ١٤٢.

(٩) نفس المرجع، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(١٠) لاكير، ص ٢٦٤.

(١١) فلابان، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(١٢) «شهادة مقدمة إلى اللجنة الملكية لفلسطين» عام ١٩٣٧، في الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية، إشراف الدكتور أنيس صايغ، بيروت، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠، ص ٤٣٧.

(١٣) لاكير، ص ٢٥٧.

(١٤) فلابان، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(١٥) نفس المرجع، ص ١٥٣.

(١٦) نفس المرجع، ص ١٥٦.

(١٧) لاكير، ص ٢٤٢.

(١٨) فلابان، ص ٧٦.

(١٩) لاكير، ص ٢١٥.

(٢٠) روبنشتاين، ص ٥٦٢.

(٢١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٢٢) بن عيزر، ص ٨٣.

الفصل الرابع
في الإدراك الإسرائيلي للعرب

يمكننا في هذا الفصل أن نترك الإدراك الصهيوني للعرب وننتقل إلى الإدراك الإسرائيلي. ولنبدأ بطرح السؤال التالي: هل نجح الإسرائيليون في تجاوز التحيز الإدراكي الصهيوني؟ وإن كانوا قد نجحوا، فهل تحول الإدراك إلى برنامج سياسي ما، أو هل أثر إدراكهم في سلوكهم؟ بمعنى: هل ثمة إدراك إسرائيلي للعربي منفصلاً عن الإدراك الصهيوني؟ وهل أدى تحول المستوطن الصهيوني إلى الدولة الصهيونية إلى تحول مماثل في الإدراك؟

أعتقد أن الوجدان الإسرائيلي لا يزال حبيس الخريطة الإدراكية الصهيونية بكل تحيزاتها. وهذا ليس بأمر مستغرب، فالإنسان الإسرائيلي إنسان مستفيد من المشروع الاستيطاني الصهيوني، ولا يوجد له أي كيان خارجه، وظهور العربي الحقيقي يهدِّد هذا الكيان وينسف الادعاءات الصهيونية من جذورها(١).

العربي المتخلف والعربي ممثل الأغيار.

ولنبدأ بمقولة «العربي المتخلف» في مقابل «الصهيوني كممثل للحضارة الغربية». هناك الكثيرون بطبيعة الحال في إسرائيل

الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة شعلة الحضارة الغربية في جبهة الشرق الأوسط، وأن العرب هم ممثلو الشرق المتخلف. فعلى سبيل المثال، يرى أبا إيبان أن إسرائيل في الشرق الأوسط ولكنها ليست منه، ويتبعه في ذلك بن جوريون وبيجين ومعظم القيادات الصهيونية.

بل إن سياسة إسرائيل بكاملها، ابتداءً من نمط تصويتها في هيئة الأمم إلى تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، ترجمة لهذه الرؤية للذات. ويمكن أن نضيف أن الأسلحة الإسرائيلية التي تدك مخيمات اللاجئين هي، في معظم الأحوال، أسلحة غربية متقدمة أو ثمرة من ثمرات التكنولوجيا الغربية. كما أن القنابل العنقودية الفتاكة هي ولا شك نتاج حضارة متقدمة منظمة على أكمل وجه، والمعونات التي تلتهمها إسرائيل أولا بأول هي معونات غربية بشكل عام وأمريكية على وجه الخصوص. وقارئ الصحافة الإسرائيلية يعرف أن الدولة الصهيونية لا تكف عن الحديث عن نفسها باعتبارها امتداداً للغرب وواحة من الديمقراطية الغربية، كما يعرف أن أسلوب الحياة هناك استهلاكي غربي (على الأقل بالنسبة للإشكناز).

وتنعكس هذه الرؤية الصهيونية للذات وللآخر على موقف الدولة الصهيونية الإشكنازية من يهود البلاد العربية، فهي تنظر لهم بالمنظار الغربي، وترى أنهم عنصر من عناصر التخلف الحضاري العام في الجيب الصهيوني. بل إن إنكار الإنجاز الحضاري العربي قد انسحب على إسهام اليهود العرب للحضارة العربية، وعلى إسهام اليهود السفارد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذا، لا يأتي ذكر لهذه الإنجازات، إلا نادراً، في الكتب المدرسية الإسرائيلية. ومن سخرية الأقدار أنه حتى بدايات القرن الثامن عشر، كانت إسهامات

اليهود الإشكناز في حضارات بلادهم في حكم المنعدمة، ولا تخرج عن نطاق الفتاوى التلمودية والإشراقات القبالية، فلم ينتج يهود الغرب شخصية مثل موسى بن ميمون أو شاعراً مثل يهودا هاليفي (إلا مع بدايات القرن الثامن عشر).

ولكن الهدف المقصود هو صاحب الأرض الفلسطينية، أي العربي وليس اليهودي الشرقي، ولذا نجد أن صورة العربي المتخلف هي صورة متواترة في الصحافة الإسرائيلية لا تكف أجهزة الإعلام عن تأكيدها، ولا تكف المقررات الدراسية عن ترسيخها في الوجدان الإسرائيلي. وقد صدرت كتابات عربية عديدة لتوثيق هذا الجانب من الإدراك الإسرائيلي للإنسان العربي.

وقد ذكرنا من قبل امتداداً طريفاً لصورة العربي كشرقي، وهو صورة اليهودي كعربي. وعلى الرغم من أننا ذكرنا أن هذه الصورة قد ظهرت قبل تبلور الإدراك الصهيوني للعربي، إلا أنها مع ذلك لا يزال لها أصداؤها في الوجدان الإسرائيلي، وتأخذ شكل الفكرة الكنعانية التي تنطلق من الإيمان بأن اليهود العائدين لإسرائيل إنما هم عبرانيون - أي جزء من التشكيل الحضاري السامي وليس لهم علاقة بيهود الشتات. ولعل الدعوة للقومية الإسرائيلية (ككيان منفصل بل ومناقض للهوية اليهودية)، أو تمجيد الصابرا في مقابل يهود المنفى، تعبير جزئي عن نفس هذا الإدراك.

أما العربي، ممثلاً للأغيار، فهو أيضاً إدراك لا يزال سائداً في إسرائيل، فقد فسر المفكر والعالم يشياهو ليبوفتر ما سماه الصراع العربي اليهودي على أنه تعبير عن الجوهر الأزلي للمأساة التاريخية(٢) للشعب اليهودي، أي مشكلة اليهود مع الأغيار. أما الشاعر بنحاس صادح فيرى أن العرب هم التعبير عن حاجة العالم المسيحي لتصفية ظاهرة اليهود(٣). ويفسر الكاتب الإسرائيلي

يهوشاوا المقاومة العربية على أساس أنها شيء غير مفهوم، وعلى أساس أن دوافعها غير عقلانية إلى حدٍّ كبير. ثمة شيء ما في اليهود يؤدي إلى إثارة جنون الشعوب الأخرى(٤).

وهم في إسرائيل لا يتحدثون عن اليهود والعرب، وإنما يتحدثون في كثير من الأحيان عن «اليهود وغير اليهود»(٥)، أي الأغيار، على طريقة وعد بلفور. وفي هذا الصدد، قد يكون من المفيد أن نتذكر أن الحاخام أبراهام أفيدان قد أوصى الجنود الإسرائيليين - في إحدى نشرات الحاخامية العسكرية للجيش الإسرائيلي - بقتل المدنيين الأغيار (أو غير اليهود)، ولكنه كان يعني بطبيعة الحال العرب، إذ إنه لا يوجد سواهم وحسب. ولا شك أن جنود جيش الدفاع الإسرائيلي كانوا يعرفون تماماً ما كان يرمي إليه الحاخام الصهيوني، فالعربي، حسب هذا الإدراك، هو ممثل الأغيار.

وقد ذكر الصحفي الإسرائيلي (وعضو الكنيست) يوري أفنيري في إحدى مقالاته (أثناء حرب الاستنزاف على الحدود المصرية) أن الطيارين الإسرائيليين يطيرون بطائراتهم ويدكون المنازل والمدارس المصرية ثم يعودون إلى منازلهم ولا يرون في أحلامهم ضحاياهم وإنما يرون جيتو شرق أوربا أثناء إحدى المذابح التي كانت تدبر ضد اليهود - أي إن الإسرائيلي يدرك نفسه على أنه الضحية الدائمة وأن العربي ممثل الأغيار والجزار حتى بعد أن قام هو شخصياً بذبحه.

العربي الهامشي والعربي الغائب.

أما العربي الهامشي فيظهر في الرؤية الإسرائيلية على أنه شخص له حقوق مدنية يمكن ممارستها من داخل مجالس

البلديات ومجالس القرى، ولكنه ليس له حقوق سياسية أو قومية ينبغي التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية، ومن هنا عدم السماح بقيام أحزاب عربية قومية. والمفهوم الإسرائيلي للحكم الذاتي لا يخرج عن هذا الإطار. ومفهوم الإدارة الذاتية في جوهره تعبير عن ذلك، فهو مفهوم يفصل الإنسان العربي عن أرضه ويحقق الرؤية الصهيونية في مرحلة أصبحت الإبادة فيها شبه مستحيلة وأصبح تفريغ الأرض من سكانها أمراً صعباً. ويظهر التهميش كذلك في إصرار الإسرائيليين على التعامل لا مع العرب وإنما مع المسلمين والمسيحيين والدروز وسكان القطاع وسكان الضفة ومع القيادات التقليدية. بل إن الاستراتيجية الصهيونية الحالية تجاه المنظومة العربية بأسرها لا تزال تدور في إطار الإدراك القديم، وهو إنكار القومية العربية والتعامل مع الجماعات الإثنية والقومية المختلفة، وهذا هو في نهاية الأمر إطار كامب ديفيد.

ويأخذ التغييب الآن فكرة تهجير الفلسطينيين ودفع تعويضات لهم وتشجيعهم على الهجرة إلى الغرب حتى يمكن تفريغ الأرض من سكانها. وقد دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على وصف تغييب عرب فلسطين عام ١٩٤٨ وإرغامهم على الخروج من فلسطين عن طريق الإرهاب بأنه كان عملية «تبادل سكان» تم من خلالها توطين الفلسطينيين خارج فلسطين وتوطين العرب اليهود داخلها.

ولكن التبادل يعني القبول من الطرفين، وهو أمر كما نعلم لم يحدث، فالفلاحون الفلسطينيون لم يقبلوا أن يتركوا أراضيهم ليحلوا محل رجال الأعمال والمحامين من أعضاء الأقلية اليهودية في مصر أو العراق، وبالتالي فلم يكن هناك تبادل. كما أنه لم يتم تبادل أرض بأرض، فنحن لا نعرف أن الحركة الصهيونية قد

دبرت للفلسطينيين المغيبين قطعة أرض في مكان ما. ولكنه مع هذا «تبادل» من وجهة نظر الإدراك الصهيونية باعتبار أن فلسطين هي المكان الطبيعي لليهودي الخالص، ولا يوجد فيها مكان للعربي الغائب أو الذي يجب أن يغيّب. ولذا، حينما يخرج العربي (حتى ولو بقوة السلاح) ويحل محله اليهودي، فإن في هذا تحقيقاً لرؤية إدراكية مسبقة، وبالتالي فإن هذا يبدو أمراً طبيعياً ومنسجماً.

ومن أشكال التعبير عن تغييب العرب الاصطلاح القانوني الإسرائيلي «الغائبون الحاضرون» وهو يشير إلى الفلسطينيين الموجودين بالفعل داخل حدود ٤٨، والذي مُنعوا من الوصول لأرضهم بأمر الحاكم العسكري. ولو تُرجم هذا المصطلح إلى «الحاضرين المغيبين» لظهر معناه الحقيقي.

أما إغفال العرب فيظهر في إنكار وجود حركة المقاومة الفلسطينية ورفض التعامل معها والإصرار على الإشارة للفدائيين على أنهم «متسللون وإرهابيون وقتلة»، وفي رفض التصريح بعدد ضحايا الهجمات الفدائية، وفي وصف جولدا مائير لنفسها بأنها «فلسطينية».

العربي كيهودي.

ثم نأتي أخيراً لعملية الإسقاط الصهيونية التي تحول العربي إلى يهودي المنفى. ويبدو أن هذه الظاهرة أيضاً لها امتداداتها. وقد لاحظ أحد المؤلفين العرب (دكتور رشاد الشامي بجامعة عين شمس بالقاهرة)، في دراسة له في قصة «خربة خزعة» لساميخ يزهار، أن الفكر الصهيوني الإسرائيلي بدأ ينسب إلى العربي السمات السابقة نفسها التي كان ينسبها ليهود المنفى، وهي السمات التي

استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة اليهود.

وقد بدأ الدكتور علي جاد أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الملك سعود بالرياض، في نشر مجموعة من الدراسات عن هذا النمط الإسقاطي كما يرد في الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي نسوقها على هذا الإسقاط الصورة التي رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالن للفلسطيني في المستقبل كما يحب أن يراها، فقال: «لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كافٍ من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سُبل العيش المعقولة، وقيل لهم إن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً - لو حدث هذا لبدأوا عندئذ في الاعتماد على النفس»(٦). ولنلاحظ أن الصورة الكامنة هنا هي صورة «اليهودي التائه» الذي يرحل من مكان لآخر دون توقف، والذي لا يهمه سوى المبلغ الذي يحمله، أي إنها صورة اليهود في كتابات المعادين لليهود.

ومن الأمثلة الدرامية الأخرى على عملية الإسقاط الحوار التالي الذي نشر في جريدة **حاداشوت** (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين أحد مراسلي الجريدة وزوجة موشيه ليفنجر زعيم جوش إمونيم. أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل نظافة ومهارة من الأطباء الإسرائيليين وأنها تفضل أن تعالج أسنانها عند أطباء يهود «لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب. فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صناعات متقدمة.. وتستورد السعودية آلاف الفنيين.. إن كل أمة لها اتجاهاتها الخاصة، والعرب لا يصلحون إلا أن يكونوا تجاراً». إن

العربي هنا هو يهودي البروتوكولات - التاجر المرابي الطفيلي. وهو أيضاً، شأنه شأن يهودي البروتوكولات، مصدر كل الشرور ويهدد أمن الدولة: فقد نشرت، على سبيل المثال، عال **هامشمار** (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبراً مفاده أن الطلبة العرب أرسلوا خطاباً لأعضاء الكنيست يهددونهم فيه بالذبح، وأنهم سيدمرون كل اليهود!.

العربي الحقيقي.

وأخيراً، نأتي للإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي. وسنكتشف أنه على الرغم من وجود مؤسسات حكومية إسرائيلية لدراسة العرب، وعلى الرغم من وجود احتكاك يومي بين الإسرائيليين والعرب، إلا أنه يمكن القول بأن الأمر لم يتغير كثيراً، فإدراك الإسرائيليين للعربي الحقيقي لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل وإنما ينتج عنه الاستجابات الثلاث التي سبق وأشرت إليها:

١ - أن يتخلى الإسرائيلي عن صهيونيته.

٢ - أن يعدل الإسرائيلي من صهيونيته في ضوء إدراكه، فيتحول هو إلى شخصية هامشية أو مبهمة.

٣ - أن يتمسك بصهيونيته، فيزيد إدراكه من ضراوته وشراسته نظراً لتزايد إحساسه بالخطر المحدق.

وهذه الأنماط الثلاثة هي ذاتها الأنماط التي كانت سائدة بين الصهاينة قبل ١٩٤٨، وقد لاحظنا شيوع النمط الثالث، ويبدو أن الأمر لا يزال على ما كان عليه.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على النمط الأول ممن أدركوا العرب كحقيقة تاريخية، وتقبلوا هذا الإدراك وحددوا سلوكهم في

إطاره، لذكرنا موشيه ماخوفر المواطن الإسرائيلي الذي تحول إدراكه إلى رفض للصهيونية، فغادر الكيان الصهيوني واستقرّ في لندن. وهناك كذلك المناضل الإسرائيلي اليهودي أديب الذي انضم لصفوف المقاومة الفلسطينية ودخل السجن دفاعاً عما تصوره الحقيقة التاريخية والعدل الإنساني.

أما بالنسبة للنمط الثاني، فيمكن أن نذكر شخصيات مثل متيتياهو بيليد ويوري أفنيري وأرييه إلياف، فهم يدركون العرب كحقيقة تاريخية لا بد من التعامل معها، ولكنهم مثل أبشتاين والآخرين ينطلقون من تقبل الكيان الصهيوني كحقيقة قائمة، ولذلك فإنهم يطلبون من الإنسان العربي التاريخي أن يتعامل مع الإنسان الإسرائيلي ككيان تاريخي قائم. وقد تسبب موقفهم هذا في تهميشهم تماماً، خاصة في حالة إلياف الذي كان شخصية قيادية في المؤسسة العمالية ثم بدأ يدعو لفكرة التصالح مع العرب والاعتراف بهم فأخذ يتحرك من المركز إلى الهامش حتى فشل في الحصول على مقعد في الكنيست.

أما النمط الثالث، وهو النمط الأكثر شيوعاً، فيضم أولئك الذين أدركوا أبعاد الرفض العربي لهم، وأنه رفض تاريخي حقيقي مستمر، تحركه الدوافع القومية، فزادهم ذلك إصراراً وتمسكاً بموقفهم. وسنجد أن هؤلاء قد تبنوا مفهوم «إين بريرا» – أي «لا خيار» – أي أنه لا يوجد أمام الإسرائيلي سوى الحرب المستمرة. ومن أهم ممثلي هذه الرؤية موشيه ديان وهو من جيل الصابرا الذي نشأ على الأرض العربية وعرف العربي عن قرب. وهناك بطبيعة الحال أرييل شارون الذي يرى أن ما لا يؤخذ بالقوة يؤخذ بمزيد من القوة! ومن أهم المفكرين الاستراتيجيين الذين تتسم رؤيتهم بالإدراك الواضح وبالعنف والشراسة شلومو أرونسون الذي

تتبأ بما يسميه حرب المائة عام بين إسرائيل والعرب. وهؤلاء الإسرائيليون يشبهون في كثير من الوجوه شاريت وبن جوريون وجابوتنسكي حيث يترجم الإدراك نفسه لا إلى تعديل للرؤية وإنما إلى تعميق الإحساس بعدم الأمن الذي يترجم نفسه بدوره إلى مزيد من الضراوة.

القصور الإدراكي:

بعد هذا العرض السريع للطيف الإدراكي (الصهيوني/ الإسرائيلي) تجاه العرب وبعد أن عرضنا لإشكالية العربي الحقيقي وأثره على السلوك الصهيوني، قد يكون من المفيد أن نحاول أن نشخص مواطن الخلل أو القصور الأساسي في هذا الإدراك. وثمة خلل وقصور ولا شك، وإلا فيم نفسر حالة الصراع الدائمة التي استمرت إلى ما يزيد عن مائة عام، والآخذة في التصاعد والتي لا توجد أية مؤشرات على إمكانية انفراجها إلا عن طريق استسلام أحد الطرفين للآخر. وفي محاولة التوصل إلى طبيعة هذا الخلل، سنشير إلى مقال نشر عام ١٩٢٢ في مجلة كانت تصدرها جماعة صهيونية «اشتراكية» تسمى «فرقة العمل». وقد حاول كاتب المقال أن يعبّر عن رؤيته لمستقبل كيبوتس عين هارود الزاهر الذي كان يجري تشييده آنذاك في وادي جزريل. وقد تخيل كاتب المقال الكيبوتس بعد مائة عام، وتأمل ثراءه وإنجازاته الثقافية ومنازله التي ستشيد على «الطريقة الشرقية». وحلم المؤلف بأنه سيشيد في وسط الكيبوتس تمثالاً لرجلين «واحد عربي والآخر يهودي»، جالسين على صخرة ويحملان راية نُقشت عليها ثلاث كلمات: «المساواة والأخوة والحرية»(٧). لكن الصورة الإنسانية المتوهجة التي رسمها المؤلف الصهيوني لكيبوتس المستقبل تتجاهل عدة حقائق:

١ - لا ندري كيف صوّر المؤلف الصهيوني ذلك العربي الجالس إلى جوار اليهودي، ولكننا مع هذا يمكننا التخمين فنحن نعرف أن الصهاينة كانوا لا يعترفون بالتشكيل القومي العربي، خاصة داخل فلسطين، ولذا فإن العربي الجالس هناك على الصخرة كان شخصية مجردة من حقوقها القومية وتراثها الحضاري، فرد قد يكون له حقوق مدنية وربما بعض الحقوق السياسية على أكثر تقدير، ولكنه كان عليه أن يتنازل عن كثير من حقوقه، ويقتسمها مع اليهودي الذي اقتسم معه الصخرة وكأن لهما نفس الحقوق ونفس الشرعية. وهذا ولا شك خلل إدراكي. فالعربي عاش آلاف السنين يفلح هذه الأرض ولا يعرف له وطناً غيرها، ولا يمكنه أن يقتسم فلسطين مع الصهيوني الجالس إلى جواره، فهذا الأخير جسم غريب غُرس غرساً في هذه الأرض بمساعدة الاستعمار الغربي.

٢ - والصهيوني الجالس على الصخرة إلى جوار العربي، حتى لو كان من كبار المدافعين عن قيم الحق والعدالة، مغتصب، فوجوده في فلسطين عدوان، كما أن كيبوتس عين هارود أسس على أرض غيِّب سكانها، ولذا فإن هذا الثوري اليهودي سيؤسس وطنه في أرض غيره. وهذه حقيقة لا تحتاج لمنظرين يساريين أو ثوريين، فهذا ما قاله ملك إيطاليا لهرتزل. وإذا كان الصهاينة لم يروا هذه الحقيقة البديهية فإن ذلك دليل قاطع، وكأننا نحتاج لمثل هذا الدليل على مدى خلل إدراكهم للواقع.

لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني إلا بتغييب العربي أو تهميشه على الأقل، فغياب العربي هو تحقق الصهيونية، وتحقق الصهيونية هو غياب العربي: وهذا ما عرفه جابوتنسكي صاحب فكرة الجدار الحديدي وتبعه تلميذه بيجين ومعظم الإسرائيليين.

وقد أكد بيجين في خطاب له أمام سكان كيبوتس عين هارود. فبعد تأسيسه ونجاحه، أكد على ضرورة تغييب العربي والتمسك بالزعم بأن فلسطين لا توجد، وأنها كانت ولا تزال وستظل إرتس يسرائيل: «فلو كانت هذه هي فلسطين [أرض العربي الحقيقي] وليست أرض إسرائيل [أرض اليهودي الخالص] إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض. أنتم إذن غزاة. وإذا كانت هذه هي فلسطين [أي إذا اعترفنا بوجود العربي الحقيقي ذي الحقوق القومية والسياسية]، فإنها إذن تنتمي للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها، ولن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت هذه هي أرض إسرائيل»(٨). وقد تولى بيجين رئاسة الوزارة فيما بعد، ولم نعد نسمع عن ماجنيس أو أبشتاين وأمثالهما في كتب التاريخ.

ولكن البشر لا يوجدون داخل وعي الآخرين وإدراكهم، ولذا فإنهم يرفضون الغياب والتواري عن الأنظار والتحول إلى كائنات اقتصادية ويحملون السلاح دفاعاً عن وجودهم وشرفهم. ولذا، بدلاً من النصب التذكاري الذي حلم به المؤلف الصهيوني يوجد الآن في عين هارود نصب تذكاري شيده الإسرائيليون للقتلى الصهاينة الذين سقطوا في الحروب التي لا تنتهي مع العرب(٩) والتي تنبأ بها بن جوريون في إحدى لحظات الصفاء!

الاعتدال والتطرف الصهيونيان.

لعل من أهم النتائج التي خلصنا لها في تقييمنا للإدراك الصهيوني للعرب انفصال الإدراك عن السلوك، إذ إن نفس الإدراك لنفس الظاهرة (مثلاً: إدراك الصهاينة للعربي كإنسان حقيقي له حقوق) قد يؤدي إلى أنواع متباينة من السلوك. كما أن إدراك آحاد هعام ويهودا ماجنيس وبن جوريون للعربي

الحقيقي قد نجم عنه تذبذب من جانب الأول، ومحاولات يائسة للتوفيق بين رؤيتين متناقضتين من جانب الثاني أدت إلى تهميشه هو شخصياً، ومزيد من الشراسة من جانب الثالث. وقد بينت من قبل أن الاستجابات تختلف من فرد لآخر نتيجة لمركب هائل من العوامل النفسية والعصبية والتاريخية والسياسية. كما بينت أن موازين القوى وطبيعة الحوار المسلح الدائر بين الطرفين تلعب دوراً هاماً في ترجيح صورة إدراكية على حساب الأخرى. ولذا، فإننا نجد في غياب القوة العربية أن النمط الثالث هو أكثر الأنماط الصهيونية شيوعاً، فهو النمط الذي كان يدرك منطق الرؤية الصهيونية والذي كان يعرف موازين القوة معرفة جيدة. ويمكننا أن نرسم مخططاً متكاملاً لطيف الإدراك الصهيوني في علاقته بموازين القوى:

١ - في حالة اتجاه موازين القوى لصالح العرب وضد صالح الصهاينة، فإن هذه القوى تدعم الإدراك الواقعي، ويساهم ذلك في تبديد الأوهام الأيديولوجية، ويبدأ الإدراك الواقعي في فرض نفسه. وقد يتحول إلى برنامج سياسي يعكس الواقع، أي إنه يتم ترشيد العقل الصهيوني (وفي هذا الإطار قد تتحول الشخصيات الهامشية «المجنونة» مثل إسرائيل شاهاك وأفنيري إلى شخصيات قيادية. ويمكن أن تظهر أيضاً قيادات سفاردية على استعداد لتعديل أسطورة الذات الصهيونية). ومع هذا، لا بد وأن نسارع إلى القول بأنه، من خلال استقرائنا للتاريخ حين تبدأ مقاومة السكان الأصليين للمستوطنين، عادة ما يستجيب المستوطنون في بداية الأمر بشراسة، وكلما تصاعدت المقاومة كلما تزايدت الشراسة (وهذا ما نسميه المرحلة الشارونية) إلى أن يصل المستوطنون إلى الاقتناع بأنه لا مخرج لهم من ورطتهم التاريخية

إلا بفك الجيب العنصري الاستيطاني الإحلالي، كما حدث في جنوب إفريقيا.

٢ - في حالة اتجاه موازين القوى لصالح الصهاينة وضد صالح العرب، فإن هذه القوى ستدعم الإدراك الصهيوني المتحيز. وسيساهم ذلك في أن يتحول الواقع التاريخي إلى شيء هامشي باهت وأن يتدعم البرنامج السياسي الصهيوني كمرشد للتعامل مع «الواقع».

ويمكن أن نفسر التطرف والاعتدال الصهيونيين في ضوء الاحتمالين السابقين. فإن ظل العربي الحقيقي ساكناً دون أن يتحدى الرؤية أو موازين القوى، ودون أن يرسل برسائل مسلحة للعدو، أصبح من الممكن قبوله كشخصية متخلفة هامشية غائبة، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاهه، بل و«منحه» بعض الحقوق (وهنا تكمن المفارقة). أما إذا بدأ العربي الحقيقي في التحرك لتأكيد حقوقه ولرفض الهامشية وتحدي الرؤية الصهيونية، وحاول تغيير موازين القوة لصالحه، فإنه يصبح مصدر خطر حقيقي ويصبح من الضروري ضربه لتهشيمه وتهميشه ويصبح التسامح مرفوضاً.

هذا لا يعني أننا نسقط أهمية الإدراك من حسابنا ونؤكد موازين القوى وحسب، فالواقع لا يفرض نفسه على عقل الإنسان بشكل مباشر وإنما من خلال طيف إدراكي، وتساهم القوة في تقويض الإدراك أو تدعيمه، فهي علاقة مركبة إلى أقصى حد. ولذا، يجب أن نعرف تماماً أننا نعيش في عالم ليس من صنعنا وهو عالم يؤمن بالحواس الخمس وبكل ما يُقاس، ولا يعترف كثيراً بالحق أو الخير أو الجمال. ولذا، لا بد وأن نضغط على الحواس الخمس لدى أعدائنا من خلال الحوار المسلح حتى يعرف الآخر

أن العربي الحقيقي ليس مجرد صورة في وجدانه يمكنه تناسيها، وإنما قوة واقعية يمكن أن تسبب له خسارة فادحة إن هو تجاهلها أو حاول تهشيمها.

ولعل هذا هو القصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام في إطار اتفاقية كامب ديفيد وغيرها من الاتفاقيات. فمهندسو هذه الاتفاقيات يظنون أنهم عن طريق رفع رايات السلام سيغيرون صورة العربي في وعي العالم، وأن هذه الصورة ستخلق دينامية تفرض على الإسرائيليين أن يصلوا إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماماً. فبعد الأسابيع الأولى، وبعد أن يتوقف الحوار المسلح وبعد أن تطوى عدسات التليفزيون الساخنة، تظهر حسابات القوة الباردة التي تفرض منطقها الثلجي البارد القاسي على الجميع وعلى مائدة المفاوضات.

وقد جاء في مجلة **نيوزويك** الأمريكية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات بشروط كامب ديفيد كما فرضها بيجين، طلب تخصيص رقعة ما في القدس ترفع عليها الأعلام العربية حتى تكون «غنيمة أخرى» يعود ليتباهى بها. وكان تعليق أحد أعضاء الوفد الإسرائيلي هو أن تُرفع الأعلام على المقابر العربية (سلام القبور» الذي لم يرده وايزمان لنفسه). أما ديان فقال «السادات يريد بقشيش»، أي إنه نظر إلى الرئيس السادات، رئيس جمهورية مصر، من خلال الخريطة الإدراكية الصهيونية. وحيث إن السادات قد أوقف الحوار المسلح، فقد حوله ديان إلى إنسان متخلف هامشي، شحاذ ليس له حقوق، يمكن أن «تهبه» شيئاً إن أردت من قبيل الاعتدال الصهيوني. وقد كان ديان أكثر واقعية من الرئيس السادات، فحسابات القوة الباردة في عالمنا لا تعرف الحق والحقيقة. ولو كان هناك وراء السادات دبابة عربية، تقف شامخة

جميلة، لما رآه ديان شحاذاً يقف على عتباته.

ومرة أخرى، رغم معرفتي بمنطق القوة، فإنني لا أكنّ له حبّاً ولا احتراماً، ولكنني كما قلت في عالم ليس من صنعنا، وهو عالم قبيح صُنع أساساً في الغرب في القرن التاسع عشر، وإن أردنا التعامل معه بكفاءة فإن علينا أن نقيّمه تقييماً موضوعياً. ومع هذا فأنا أعتقد أنه يجب ألا نرفض فكرة الحوار مع الآخر. فالآخر موجود الآن في وسطنا، ومدجج بالسلاح، ولذا فأنا أطالب دائماً بالحوار المسلح - فالحوار يمكّنني من فهم الإسرائيلي الحقيقي ويمكّنه من فهم العربي الحقيقي. أما الحوار بدون سلاح قد يطرح صورة إدراكية صادقة ولكنها صورة معرضة للشحوب ثم الاختفاء لأنها تساندها القوة، ولذا يجب أن تستند بنية الإدراك لبنية القوة، وحينئذ قد يتحول الإدراك إلى فعل فاضل وتتحول الحقيقة إلى عدل.

هوامش
الفصل الرابع

(١) تم اقتباسه في: عبد الوهاب محمد المسيري، الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢ - ١٩٨٣)، انظر خاصة الفصل الثاني عشر.

(٢) بن عيزر، ص ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٤ - ٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٥) يديعوت أحرونوت، ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤.

(٦) يديعوت أحرونوت ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤.

(٧) روبنشتاين، ص ٦٧.

(٨) يديعوت أحرونوت ١٧ أكتوبر ١٩٦٩.

(٩) روبنشتاين، ص ٦٧.

الفصل الخامس
الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية

يصل الإدراك الصهيوني الإسرائيلي للعرب لحظة تحققه النماذجية في التغييب الكامل للعرب، وهذا هو الحلم الصهيوني في لحظة تحققه الوهمية وفي حده الأقصى ورغم أنه حلم، إلا أنه يشكل البنية التحتية لكل الأفكار والمواقف الأخرى للصهاينة، ولا يمكننا أن نصف الاختلافات والتفرعات الأخرى إلا بأخذ هذه النقطة في الاعتبار.

ويجب التأكيد على أن الأفكار تلعب دوراً أساسياً في تحديد سلوك المستوطن في الجيوب الاستيطانية بشكل يفوق الدور الذي تلعبه في تحديد سلوك المواطنين في التشكيلات السياسية العادية. ففكرة القومية الفرنسية تحرك الجماهير الفرنسية، وفكرة القومية اليونانية تحرك الجماهير اليونانية، ولكن القومية الفرنسية ليست مجرد فكرة أو مشروع قد يفشل أو ينجح وإنما واقع تاريخي ممتد ترجم نفسه إلى مؤسسات وتراث ولم يعد من الممكن وضع وجوده ذاته موضع تساؤل. كما أن الفرنسيين ليسوا مهددين بشعب آخر كان يشغل أرضهم ولا بتاريخ آخر كان يشغل الحيز الزماني في وطنهم، وبالتالي فإن فكرة القومية بالنسبة لهم مجرد تعبير عن

واقع قائم راسخ متعين مركب. أما الجيوب الاستيطانية فهي تستند عادة إلى فكرة هي في الواقع كذبة تاريخية كبرى (فالسكان الأصليون غير موجودين)، وهذه الفكرة ليست واقعاً قائماً وإنما إطار عقلي وعاطفي، مجرد حلم. ولذا فإننا نجد أن هذه الفكرة (الحلم - الوهم) تلعب دوراً حيوياً في تحديد علاقة المستوطن مع واقعه، بل ونجدها في كثير من الأحيان تحل محل الحقيقة.

ومع هذا، تظل الحقيقة التاريخية قائمة، ويخرج المستضعفون والمغيبون من الغابات والقرى ومن بين شقوق الأرض فيظهرون على شاشات التليفزيون وعلى شاشة الوعي ويقبعون في أحلام الظالم الذي ظن أنه قد غيبهم وإلى الأبد ويدخلون في حوار مسلح - فيتقلص الوهم أو يتبدد.

وبدلاً من العربي المغيب، يبدأ بعض المستوطنين بالحديث عن إمكانية التعايش مع السكان الأصليين مع إعطائهم حق تقرير المصير المحدود. ويتزايد الضغط، قد تظهر قطاعات توسع من نطاق هذه الحدود، فيتحدثون عن حق تقرير المصير الكامل ولكن المشروط بنزع السلاح. وهناك من يقبل بدولتين متساويتين في السيادة القومية وهكذا. وهناك أخيراً، كما أسلفنا، من يصل إلى تقبل العربي الحقيقي ويدرك تماماً أن تاريخ فلسطين إنما هو تاريخ عربي، وهو في هذه الحالة يخرج على المشروع الصهيوني ذاته ويصبح معادياً للصهيونية ورافضاً لها.

ولنحاول الآن دراسة نماذج من التفكير السياسي الإسرائيلي بخصوص فكرة الدولة الفلسطينية. هنا سنجد أفكاراً متضاربة عديدة واقتراحات لا حصر لها ولا عدد تقع على درجات مختلفة من المتصل الإدراكي الذي اقترحناه. ولتبسيط الصورة، حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل، سنقسم المواقف إلى ثلاثة يقترب أولها

من الحد الأقصى الصهيوني، أي تغييب العرب، حتى أنه يكاد يلتصق به، ويبتعد ثالثها عنه حتى يبدو وكأنه نقيض، ويقف ثانيها في نقطة اعتبارية متوسطة بينهما.

وقد اخترنا شموئيل كاتس - أحد مؤسسي حركة حيروت والذي شغل منصب مستشار رئيس الوزراء مناحم بيجين عام ١٩٧٨ كممثل للنموذج الأول(١). وليعبر كاتس عن وجهة نظره، فإنه يقتبس كلمات بن جوريون الذي يشير فيها إلى «تاريخ اليهود» وإلى «بلاد اسمها يهودا وهي التي نسميها أرض إسرائيل... إن هذه البلاد جعلت منا شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد. ويضيف كاتس: «خلال مئات السنين التي تخللتها عمليات قتل وطرد وتمييز ومستوى معيشي سيئ، لم يتأثر الوجود اليهودي في فلسطين ولم يتخلَّ اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم».

وخلال هذه الفترة «لم يتأثر التراث اليهودي، كما لم تتأثر الثقافة اليهودية، أي اللغة العبرية التي بُدئ باستعمالها في القرن العاشر في طبرية». ونحن لن نحاول تفنيد هذه الأفكار الصهيونية الصبيانية أو الرد عليها، فهي من التفاهة بحيث لا يصح أن ينشغل المرء بها إلا بمقدار كونها مؤشراً على الحدود الإدراكية لدى صاحبها. وكاتس لا يرى سوى حضور يهودي كامل وثابت عبر التاريخ يقابله غياب عربي كامل. ويقتبس كلمات الكاتب الأمريكي مارك توين، الذي زار فلسطين سائحاً، للدلالة على رأيه وكأن مارك توين هو أحد كبار مؤرخي المنطقة العربية: «لقد وجدنا البلاد خالية تماماً (عام ١٨٦٧) لا أثر للحياة فيها.. ولم نجد في الطريق أية روح حيّة، وكانت أرض إسرائيل أرضاً جرداء وكأنها لا تنتمي إلى هذا العالم».

ويستمر شموئيل كاتس في التغييب، فينكر حتى وجود العرب

ككل، أما البشر الذين وجدوا في فلسطين فإنهم مهاجرون من البلاد المجاورة (عناصر متحركة يمكن تحريكها مرة أخرى). ولذا، فإن هؤلاء الذين يطالبون بأرض إسرائيل ليسوا سوى مدَّعين عرب وإرهابيين فلسطينيين. وهو يختم مقاله بعبارة تصل إلى البنية التحتية لكل الأفكار الصهيونية: «إذا انتصر العرب في الحرب، فإن الدمار سيلحق شعب إسرائيل كله، أما إذا انتصرت إسرائيل فسيكون على العرب الرضوخ للأمر الواقع وتقبل إسرائيل».

ويلاحظ أن حل الصراع العربي - الصهيوني من هذا المنظور الإسرائيلي لا يتم إلا من خلال الصراع المسلح - الانتصار أو الهزيمة ثم الخضوع للشروط الإسرائيلية وللسلام على الطريقة الإسرائيلية.

أما النموذج الثالث فيمثله مئير بعيل وهو من نشطاء مابام، ومن المنادين بالصهيونية ذات الديباجة اليسارية. ولا تختلف أطروحاته العقائدية أو إطاره التاريخي عن أطروحات وإطار كاتس، فهو يعرِّف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطني، أي حركة تغييب للفلسطينيين. وقد امتازت الصهيونية «بأنها ضمت يهوداً من مختلف الاتجاهات والميول ممن رأوا بأعينهم هدفاً مشتركاً وهو جمع شتات الشعب اليهودي وبناء أمة يهودية متجددة على أساس العمل العبري في أرض إسرائيل». فبعيل ينطلق إذن من الإيمان بأن للشعب اليهودي حقوقاً تاريخية كاملة في أرض إسرائيل. ثم يفسر بعيل وجود الشعب الفلسطيني في أرض فلسطين على أساس صهيوني «فلولا قيام الحركة الصهيونية، لما ظهر الفرع الفلسطيني التابع للحركة القومية العربية. ويمكن الاعتقاد بأن مجيء اليهود إلى أرض إسرائيل واستيطانهم فيها كان هو الحافز الذي أدى إلى نشوء الكيان الفلسطيني». بل إنه يؤكد

أنه «من الصعب أن نتصور اليوم كيف كانت ستبدو الأوضاع في أرض إسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيوني». فوجود الفلسطينيين - حسب تصوره - عرضي، ولكنه - وهنا مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس - ليس بالضرورة زائل، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطيني «بصفته يمتلك حقوقاً طبيعية في بلاده».

ولا ندري ما هو الفارق بين الحقوق التاريخية لليهود والحقوق الطبيعية للعرب، ولكن ما يهمنا في سياق هذا المقال هو أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم. وهذا الاعتراف نابع من خوف عميق من أن العنصر الفلسطيني داخل الدول الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطبيعة الإحلالية للكيان الصهيوني، بل إن بعيل يطرح السيناريو التالي: «هناك مخاوف، إذا استمرت سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة، من أن تشتد حدة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي (أي الحوار المسلح مع المستوطنين)، لتصل حمى المقاومة إلى العرب الإسرائيليين المقيمين في المثلث الصغير وفي الجليل بحيث يطلب عرب إسرائيل بعد جيل أو جيلين الانضمام إلى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين».

ولكن كيف يمكن التصدي لهذا التيار وتلك الحمّى؟ يرى بعيل «أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل.. وكلما سارعت إسرائيل في تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطيني كلما كان ذلك أفضل لها». ثم يأتي بعد ذلك بحشد هائل من التفاصيل عن الجمارك والكهرباء وعن ارتباط الدولة الجديدة بالأردن، إذ لا بد أن تولد الدولة مقيدة وليس لها من الدولة غير الاسم.

ويمكننا اختيار شلومو أفنيري كمثال على النموذج الثاني.

وأفنيري هذا من كبار المفكرين الإسرائيليين وشغل منصب مدير عام وزارة الخارجية في حكومة العمال بين عامي ١٩٧٦ – ١٩٧٧. وهو يتحدث أيضاً عن أرض إسرائيل ذات التراث اليهودي المجيد وأرض الخلاص بالنسبة لليهود، والصهيونية هي الحركة القومية اليهودية التي ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو في واقع الأمر تخليص للأرض وتغييب لأصحابها الأصليين، أي العرب). وهو يرى أن المطالب الصهيونية في كافة مناطق أرض إسرائيل مطالب عادلة، ولكن الحركة الصهيونية رضخت لقرار التقسيم لأن أحداً في العالم «لم يكن يؤيد المطالب اليهودية». ثم يضيف إلى هذا ديباجات أخلاقية عن أن الصهيونية «تجد صعوبة في المطالبة بحق تقرير المصير لنفسها، ومعارضة منح هذا الحق لفئة سكانية أخرى». ويسمي أفنيري نفسه من أتباع الصهيونية السوسيولوجية (في مقابل صهيونية الأراضي) وصهيونيته تهتم بالطابع اليهودي للدولة، أما صهيونية كاتس فهي تركز اهتمامها على ضم الأراضي، ومن هنا حديث «المعتدلين» عن الأرض في مقابل السلام. ولكن مهما كانت الأسباب (الضغوط الدولية أو عذاب الضمير الصهيوني أو الخوف على الطابع اليهودي للدولة)، فإن أفنيري يطرح الحل التالي الذي يسميه حلاً وسطاً: «لا دولة إسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استعداد بعيد الأثر لقبول الحل الوسط في إطار حل أردني – فلسطيني».

ولعل هذه النماذج الثلاثة تغطي كل الاتجاهات السياسية الإسرائيلية تجاه الدولة مع اختلاف طفيف في الديباجات، فجوش إمونيم والليكود ينتميان للنموذج الأول، بينما تنتمي بعض الأحزاب الصغيرة الليبرالية ومابام للنموذج الثالث وينتمي المعراخ للنموذج الثاني.

خصوصية الإدراك الإسرائيلي.

بعد أن رسمنا خريطة الإدراك الإسرائيلي لفكرة الدولة الفلسطينية وارتباطها برؤية الذات ورؤية الآخر لا بد وأن نوضح بعض النقاط الأساسية، كمحاولة لتوضيح المزيد من الأبعاد الخصوصية:

١ - يلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرفة منها والمعتدلة، اليمينية منها واليسارية، لا تقترب البتة من قضية الفلسطينيين الذين طُردوا عام ١٩٤٨ واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي، وهي لا تذكر بتاتاً قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقهم في العودة إلى ديارهم أو التعويض لمن لا يريد العودة.

٢ - لا يتحدث الصهاينة البتة عن الأراضي خلف الخط الأخضر التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين - مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا، فقد حول الخطاب الصهيوني الخط الأخضر إلى مطلق صهيوني جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلينا الرضوخ والقبول. وهذا أيضاً أمر منطقي ومفهوم، فالتفاوض بشأن الأراضي فيما وراء الخط الأخضر وبشأن حق العرب في السكنى في فلسطين المحتلة قبل ١٩٤٨ هو في واقع الأمر تفاوض بشأن فك الكيان الصهيوني. وعلينا أن نعي ذلك تماماً، فعدونا يعيه وإن كان لا يتحدث عنه.

٣ - يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والرضوخ، وأن أحد الأطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره. فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هي الرؤية الوحيدة

السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله: «الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي... اصطدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة». ولكنه يضيف: «إن أقوالي هذه لا تنطوي على تنازل أو استعداد للتنازل عما نعتبره حقنا التاريخي في إرتس يسرائيل وفي علاقتنا التاريخية بها». هذا الموقف المبدئي السائد في صفوف الجميع يخلق دائماً استعداداً كامناً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الإدراكي السياسي، أن ينزلقوا دائماً نحو تغييب العرب وإنكار حقهم في إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف. كما أنه يضفي صيغة الشرعية على موقف دعاة إسرائيل الكبرى، فالأصل في الموقف الصهيوني هو ابتلاع كل الأرض وتغييب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر وبشأن الفلسطينيين خارجه. ولعل هذا يفسر كيف أن الاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية قد بدأ إبان حكم العمال المعتدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لإنشاء مستوطنات هناك في نفس الأرض التي بدأ بيريز بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها مقابل السلام.

٤ - لا بد وأن نحدد خصوصية علاقة الإدراك الإسرائيلي للفلسطينيين ولفكرة الدولة الفلسطينية بالسلوك الإسرائيلي، فهي علاقة مركبة لأقصى حد، وتختلف عن علاقة إدراك العربي للدولة الصهيونية وسلوكه نحوها إذ إن محددات سلوك العربي نحو الدولة الصهيونية مختلفة عن محددات سلوك الصهيوني نحو الدولة الفلسطينية:

أ) ومن أهم العناصر التي يجب ذكرها ابتداء أن الحركة الصهيونية منذ نشأتها حركة تفتقد إلى الجماهير، فهي رأس دون جسد، ورؤية دون تجسد وهذا يعود لأسباب تاريخية عديدة من أهمها أن الجماهير اليهودية في شرق أوربا آثرت الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى فلسطين.

ولا تزال الحركة الصهيونية حتى الآن تعاني من هذه الظاهرة التي يعبرون عنها بعبارة «نضوب المصادر البشرية». ولكن ما يهمنا في هذا السياق أنه، بغياب الجماهير، كان المنظّرون الصهاينة يحددون أطروحاتهم النظرية دون أخذ الواقع التاريخي (سواء واقع الجماعات اليهودية في العالم أو واقع فلسطين) في الاعتبار. فنجد هرتزل يسجل عبارة «من النيل إلى الفرات» في مذكراته. ولكنه في اليوم التالي يقبل بالتنازل عنها، ويرضى بصيغة برجماتية: «كلما زاد عدد المهاجرين تزداد رقعة الأرض التي نستولي عليها». ثم لم يكن عنده مانع من الانتقال إلى شرق إفريقيا. بل ويرى يوري أفنيري أن التوسعية الصهيونية لم تعد مرتبطة بأي إدراك صهيوني أو مخطط رهيب أو غير رهيب، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة إسرائيل الذاتية، وبما يُطلب منها من القوة الاستعمارية التي ترعاها. فما يحدد سلوك الصهاينة ليس إدراكهم أو رؤيتهم وحسب، وإنما أيضاً، وبالدرجة الأولى، قدرتهم الذاتية المستمدة من الدعم الإمبريالي، ويمكن أن نضيف ومدى قوة أو ضعف العرب.

ب) اعتمدت الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية على دولة عظمى تضمن لها البقاء وتحقق لها الأمن نظير أن تقوم الدولة الصهيونية على رعاية مصالحها في الشرق الأوسط. وقد ازداد اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة لدرجة غير

عادية، حتى أنه يمكن القول بأن الولايات المتحدة أصبحت طرفاً في العقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني. وهذا يعني أن الإدراك الصهيوني للدولة الفلسطينية ليس هو العنصر الوحيد الذي يحدد السلوك الصهيوني، فالولايات المتحدة، التي تقع خارج نطاق هذا الإدراك، تحدد سلوك الصهاينة بشكل قد يكون أكثر فعالية من الإدراك ذاته.

لكل ما تقدم، يجب أن نكون في منتهى الحذر حين نرصد التغيرات التي تدخل على الإدراك الصهيوني لفكرة الدولة الفلسطينية. فما يقال إنه تشدد قد لا يكون تشدداً على الإطلاق، وما يسمى بالاعتدال قد لا يكون إلا تعبيراً عن الثقة بالنفس والصلف. بل إنني أعتقد أن تصاعد الضغط العربي على الجيب الصهيوني وتصعيد الحوار المسلح سيؤدي إلى التشدد في بداية الأمر، فهذه هي طبيعة المجتمعات التي تستند إلى رؤية فاشية، فهي تزداد صلابة وتمركزاً وتحجراً مع تزايد ضغط التاريخ على الأسطورة. ولكن هذا التشدد قد يكون في حد ذاته مؤشراً على تزايد التوترات داخل الكيان، وبالتالي احتمال ترشيده أو ترشيد بعض القطاعات داخله وتغيرخريطتها الإدراكية العنصرية. والعكس صحيح، فحينما يركن العرب للنوم ويخلدون للراحة ويظهرون استعداداً للمرونة والاستسلام للسلام بالشروط الصهيونية فإن العدو على استعداد لأن يمنحنا بعض الحقوق المدنية ويظهر تفهماً لبعض «مطالبنا العادلة» مثل حرية لعب كرة السلة أو كرة الطاولة أو أية كرة نشاء داخل ملاعب حرة مستقلة تابعة لبلديات فلسطين لا مخالب لها ولا أظافر.

إن الاعتدال الصهيوني ليس مؤشراً على تسامح الصهاينة أو تغير خريطتهم الإدراكية، وإنما العكس، فهو مؤشر على تزايد

تصلب هذه الخريطة نتيجة للتخاذل العربي، فالاعتدال والتسامح غير ممكنين مع العربي الحقيقي. أما هذا الكم الهامشي المهمل الذي يقف على عتبات العدو يطلب منه المغفرة والرضا، ويتحدث عن سنغافورة باعتبارها المثل الأعلى في حالة هي أقرب إلى الغياب منها إلى الحضور، فإنه يمكن ممارسة التسامح والاعتدال معه.

هوامش
الفصل الخامس

(١) كل النصوص مستقاة من كتاب «هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟» الذي أعده معهد فان لبير في إسرائيل، ونشرته دار الجليل، ترجمته في عمان (الأردن)، ١٩٨٦.

الفصل السادس

الإدراك الإسرائيلي لانتفاضة عام ١٩٨٧

في الفصل السابق، حاولت تقديم خريطة للإدراك الإسرائيلي للعرب والدولة الفلسطينية. وهذه الخريطة تأخذ - كما أسلفنا - شكل طيف إدراكي يبدأ بإدراكهم للعربي الحقيقي الذي يزرع ويحصد ويقاتل ويخلق أشكالاً حضارية، ثم تتحرك الخريطة نحو درجات متزايدة من التجريد تبدأ من العربي المتخلف إلى العربي ممثلاً للأغيار ومسؤولاً عن كل ما حاق باليهود من مآس، مروراً بمحاولة تهميش (ومن ثم تهشيم) العربي، وصولاً في نهاية الأمر إلى تغييبه تماماً، عملاً بالمقولة الاستيطانية الإحلالية: أرض بلا شعب. وقد بينا في الفصل الثاني الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي ويمكننا أن نعود لهذا الموضوع مرة أخرى، لنرى كيف يمكن إعادة صياغة الإدراك الصهيوني من خلال ما أسميه «الحوار المسلح» أي أن نبين للعدو مدى زيف رؤيته والخلل الذي تتسم به خريطته الإدراكية من خلال إرسال رسائل مسلحة، رسائل لها أنياب وأظافر تبين له أن محاولات تغييب العرب هي عملية ذهنية وأن العربي الغائب أو الذي يجب أن يغيب لا توجد في العقل الصهيوني، وأن العربي شخصية حقيقية لها حقوق يحاول

استرجاعها من خلال الجهاد اليومي المستمر.

استجابة المستوطنين الصهاينة لانتفاضة عام ١٩٨٧.

إذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المستوطنين الصهاينة لانتفاضة ١٩٨٧ لوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب: «الاعتدال» و«التشدد» واللذان يشار إليهما بالحمائم والصقور. وهذه طريقة متعسفة جداً للرصد، ولعلها تعود إلى نوع من تبسيطات النموذج المادي الإدراكي الذي يحول الإنسان المركب إلى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وعي. وتميل التصنيفات المادية إلى تصنيف الواقع بأسره إلى سالب وموجب. وقد قام أحد كبار المعلقين السياسيين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتفاضة على المستوطنين الصهاينة، فقام بحصر عدد المصابين في المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار المستخدمة، وكأن هذا هو «الأثر» الذي أحدثته الانتفاضة، فهو في دراسته هذه لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة في شكلها الخارجي - كحجر يخرج من يد عربي ويستقرّ على رأس إسرائيلي - دون أن يذكر ماذا حدث للعربي من إحساس (بالانتصار) وماذا حدث للخريطة الإدراكية الصهيونية نتيجة استجابة الصهاينة للواقع الجديد. وهي استجابة متنوعة مركبة، فهي يمكن أن تأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد علني يخفي اعتدالاً فعلياً أو خوفاً يدفعه للفرار أو رفضاً لاستيعاب الموقف. فالحجر فعل لا يحدد استجابة المصاب وإنما يحددها مركب من العناصر النفسية والتاريخية: فإصابات الإسرائيليين حقائق مباشرة أو وقائع مصمتة ليس لها دلالات حقيقية في ذاتها؛ فالإنسان الذي يصاب بحجر في رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول إلى وحش

كاسر أو ينال شيئاً من الحكمة والرشد حينما يرتطم الحجر برأسه. ومن الصعب أن يفي مصطلحان فقط (حمائم وصقور) غرض وصف هذه الاستجابات المتداخلة العديدة.

وسأحاول من ناحيتي توسيع هذا النموذج الإدراكي بما يتفق مع تركيبية الظاهرة الصهيونية وأضم للحمائم والصقور المألوفة، طيوراً إدراكية أخرى وهي الدجاج والنعام (وتنويعات أخرى). و«الحمائم» كما يقال مسالمة دائماً، و«الصقور» يُفترض فيها أنها عدوانية شرسة. و«الدجاج» - حسب رأي الخبراء - متخصص في الهرب، أما النعام فإنه يجيد فن دفن رأسه في الرمال. وأعتقد أن النعام هو أكثر الأنواع الإدراكية انتشاراً من الطيور في المستوطن الصهيوني، خاصة بعد الانتفاضة، وإن كان الأمر لا يعدم وجود عدد كبير من الدجاج الذي يتحدث كالصقور، أو وجود قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الصورة المجازية الشائعة)، أو وجود عدد كبير من الصقور التي تتحدث كالحمائم - ويرى الدكتور قدري حفني أن اليهود الشرقيين حمائم تود أن تكون صقوراً لتثبت إخلاصها للنخبة الحاكمة الإشكنازية. وقد أسقط المعلقون السياسيون كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفي كان قاصراً ساذجاً يحوي مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة الغربي أو من الصحافة الغربية التي تتمتع باحترام شديد بينهم، ولذا فإننا لم نر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإدراكية الأخرى القابعة التي تنتظر من يكتشفها ويرصدها.

وقد وجهت صحيفة «حداشوت» سؤالاً إلى عدد من الإسرائيليين البارزين الذين يمثلون مختلف التيارات السياسية والثقافية. يقول السؤال: ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينياً؟ فجاء

الرد من معظمهم بأنهم كانوا سيفعلون ما يفعله الفلسطينيون الآن، أي الانضمام للانتفاضة. بل وأضاف أحدهم أنه كان سيفعل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف وقبل هذا الوقت بكثير... و«كنت سأفعل ذلك في ديزنجوف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلاً من نابلس، فهناك سيكون تأثيره أقوى». والواقع أن هذا التصريح لا يؤدي بالضرورة إلى سلوك حمائمي، فموشيه ديان كان مدركاً تماماً لـ «عدالة» المطالب العربية وأن العرب سيثورون حتماً ويقاتلون ضد الصهاينة. ولكن مثل هذا الإدراك لا يؤدي بالضرورة إلى الانحياز للمظلومين المنتفضين، كما أسلفنا، فما يحدد السلوك النهائي ليس الإدراك وحسب وإنما موازين القوى أيضاً ومجموعة هائلة من العناصر الأخرى (المادية والمعنوية). فإن كان العربي ضعيفاً خاملاً، فإن إدراك «عدالة» مطالبه قد يؤدي إلى مزيد من التشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يتحرك في أية لحظة للحصول عليها، ولذا لا بد من ضربه بيد من حديد قبل أن يصبح قوياً وقبل فوات الأوان. هذا هو موقف بن جوريون وجابوتنسكي وشلومو أرونسون وغيرهم. ولذا يمكن القول بأن المثقفين الإسرائيليين الذين عبروا عن تفهمهم لموقف العرب ليسوا حمائم بالفعل وإنما هم حمائم بالقوة بالمعنى الحرفي والفلسفي. وهذه الاستجابة الحمائمية محصورة في أوساط المثقفين وبعض الشخصيات السياسية التي ليس لها وزن كبير، ولا أعتقد أنها تؤثر في الرأي العام الإسرائيلي أو في صنع القرار الإسرائيلي.

الدجاج والنعام.

أما الدجاج فهو موجود بكثرة: يائيل إسكيد، مثلاً، يقرر: أنه «لا يذهب الآن أحد إلى غزة سوى الحمقى [المستوطنين]. ولا

يذهب أحد إلى الضفة إلا بسبب وجيه، سبب وجيه للغاية، هو أننا خائفون»(١). وعملية «تدجين» المواطنين على يد جنرالات الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت الجيروساليم بوست(٢): فإن عدداً أقل من المستوطنين يسافرون الآن، وهم لا يتركون الأطفال بمفردهم ولا يخرجون إلا لأمور ضرورية. وقد صرح أحد الصحفيين في صحيفة حداشوت بأن العائلات اليهودية «تشهد الآن جدلاً حاداً إذا ما أرادت السفر. فإذا ما سافر مستوطن وحده فهو «مغامر»، أما إذا اصطحب زوجته وأطفاله فهو أقل «مجنون».

وتؤكد مستوطنة صهيونية أن بريق المستوطنات قد خفت، وأنه حينما تمر حافلة المستوطنين بجوار مخيم عاناتا (الفلسطيني) فإنها تسرع بطريقة مجنونة لتتحاشى الأحجار. وبدأ المستوطنون يسدلون الستائر ويغلقون المداخل بعد أن كانت المستوطنة تتمتع بجو انفتاحي بهيج: إن الوضع - كما تقول السيدة - مخيف، خاصة وأنها تعرف أن الجنود الإسرائيليين أوقفوا مظاهرة من ٦٠٠ عربي كانت متجهة نحو المستوطنة... فماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجنود فشلوا في إيقافهم؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لأطفالنا؟».

وتظهر خاصية «الدجاجية» للمستوطنين أحياناً في محاولتهم الظهور بمظهر الصقور. وها هو سائق الحافلة رقم ٢٥ (من القدس للضفة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلعون من الحجارة ويجيدون فن الاستجابة، فهم كما يقول «يتوقعون الهجوم في أي لحظة ومعتادون عليه. وعندما يبدأ الهجوم، فإنهم يتصرفون كالجنود المدربين على ما يجب عمله» إذ ينبطحون في أرض الحافلة(٣). والصورة الكامنة هنا هي صورة إنسان قلق يتوقع الهجوم ويجيد فن الاختباء، أي أنه دجاجة تم تدريبها.

ولنأخذ المستوطن ليمودي جنيان، كمثال آخر، فهو رجل

عجوز، يهودي أرثوذكسي يعمل خياطاً، وهو صقر لا شك فيه، ويطالب بضرب العرب وتحطيمهم، يقول: «نحن نفعل ذلك عند الحدود. والأمر لا يختلف هنا [في المناطق المحتلة]، فتلك حدود وهذه أيضاً حدود. كل البلد حدود»(٤). الواقع أن إدراك هذا المستوطن العجوز لفلسطين المحتلة كبلد كلها حدود هو إدراك طريف للغاية يبين مدى الهلع والإحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الإسرائيليين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الأمريكيين انتشار ما سموه بأعراض فيتنام بين جنود الإسرائيليين (وهو الإحساس بالإحباط لدخولهم في حرب غير كريمة لا معنى لها لا يمكنهم كسبها أو الانسحاب منها) فيهاجمهم اليمين الإسرائيلي لتقاعسهم ولعدم استخدامهم لمزيد من العنف، كما يهاجمهم يهود العالم وبعض الحمائم الإسرائيليين لأنهم يحطمون عظام المنتفضين، وذلك دون أن يطرحوا عليهم البديل. وقد ذكرت صحيفة هآرتس أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العيادات النفسية قد ارتفع ثلاثة أضعاف بسبب القلق الذي أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة. وقد عُقد اجتماع في بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة، فأشار مدير إحدى المدارس الثانوية إلى خوف المعلمين من الوصول إلى مدارسهم «بسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب». كما عبر مدير مدرسة آخر عن خوفه «من تسرب هذا الخوف والمرض النفسي من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة في الأراضي المحتلة»(٦). وعلى كل، ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومخاوفهم بالطريقة التقليدية، فقد جاء في الجيروساليم بوست أن أحد علماء النفس الإسرائيليين أعلن أنه،

بعد ٤٠ عاماً من الاحتلال، لم تظهر حالة واحدة بين مرضى النفس تعبّر عن قلقها من العرب، وكأن عملية الكبت كاملة نظراً لأن التهديد العربي كامل، وكأنه لا يمكن للجهاز العصبي للمستوطن الصهيوني أن يواجه العربي بشكل مباشر ولو على مستوى اللاوعي. ولذا فإن من الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الإسرائيلية هي نتائج استخلصها الباحثون وجردوها من أقوال المرضى الذين أبى معظمهم أن يشير إلى العرب كمصدر لمخاوفه.

أن يرفض المرء أن يكون «دجاجة»، هذه مسألة إرادية واعية، ولكن أن يتحول المستوطن إلى «نعامة» فهذا أمر يتم رغم إرادته، لا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذي ينظر إليه من الخارج. وكما أشرنا، فإن النعام في المستوطن الصهيوني، كثير، مثل جاباي (صاحب مطعم صغير في مستوطنة بيسجاب زئيف) الذي أسكت خوفه بقوله «أهم الأشياء الآن أن نوقف العنف من الطرفين وأن نجلس معاً ونشرب القهوة ونحل مشاكلنا كبشر»(٧)، ولكنه لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيمكن الوصول لتسوية ما، وما هو نوع القهوة المطلوبة أو كميتها؟.

وقد حدد أحد الضباط الإسرائيليين هذا الموقف النعامي بدقة بالغة حين صرح لصحيفة حداشوت أن اختفاء ظاهرة الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بعصا سحرية (أي على طريقة النعام) هو مجرد تعبير عن آمال وأوهام يجب أن يستيقظ منها الإسرائيليون (بدلاً من دفن رؤوسهم في الرمل أو في أرض فلسطين). ولعل هذه العصا السحرية توجد في أحد مباني حزب الليكود، إذ يقول شارون «إن الانتفاضة سوف تنتهي فور وصول الليكود إلى السلطة في نهاية العام»(٨). ولكن شارون يعني بطبيعة الحال حمّامات الدم غير السحرية. ولكن، حتى لا نصنفه نعامة،

كان عليه أن يقدم لنا الإجراءات، لأن حمامات الدم تؤدي أحياناً إلى تصعيد الانتفاضات والثورات، كما عرف الأمريكيون في فيتنام والفرنسيون في الجزائر.

وقد وصف دانيال جفرون إدراك النعام هذا في مقال بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو المخرج الوحيد»(٩) فقال «إن المسؤولين [النعام في مصطلحنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شيء دون مقابل: حدوداً آمنة، وعمقاً استراتيجياً، وعمالة رخيصة، وسوقاً مقصورة عليهم، وأرضاً لتدريب الجيش الإسرائيلي، وتجاهلاً مستمراً للعداوة العربية. [لكن ازدياد التمرد بين العرب والتدهور الأخلاقي للمجتمع الإسرائيلي وتآكل وضعه الدولي يدل على استحالة هذا]». وبعد اندلاع الانتفاضة، ترجم إدراك النعام نفسه إلى تركيز على الجانب الفني لقمع الانتفاضة كما لو كانت المسألة مجرد اجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث تتحول القضية برمتها إلى مسألة إجرائية [مسألة هل الرصاص المطاطي ومدافع المياه كفيل بالقضاء على الانتفاضة أم لا؟] دون التوجه للأسئلة النهائية. وقد اشتكى شيمون بيريز من أن الوزارة الإسرائيلية تتحلى بنفس الموقف الذي نسميه بالنعامي فهي تناقش النقط الدقيقة الفنية الخاصة بإجراءات الأمة وطريقة التصدي للانتفاضة وتتجاهل تماماً الحلول السياسية اللازمة وأضاف: «في المستقبل حينما يقرأ أحد محاضر جلسات الوزارة فإنه لن يصدق عينيه»(١٠).

وقد كتب ب. مايكل في هآرتس(١١) مقالاً بعنوان «عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدي إدراك النعام هذا، فقال: «الحمد لله! أصدرت الحكومة بياناً أكدت فيه أنه لا يوجد عصيان مدني في إسرائيل». وقد اقترح الكاتب إصدار قانون باسم «قانون غياب

العصيان» يقضي بمعاقبة كل من تسول له نفسه أن يدعي أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصياناً مدنياً. ورداً على هذا التساؤل تبقى مع هذا مشكلة صغيرة وهي: ماذا يحدث إذن هناك في المناطق المحررة من أرض إسرائيل؟. ثم يتساءل كاتب المقال أنه يحاول أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تقرر ما يحدث وتنكره في ذات الوقت، أي يقول الشيء وعكسه فيقول «ثمة مجموعات من الأطفال المدربين بعناية الذين يفتقدون إلى المبادرة، يتصرفون بتلقائية ويتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الإرهابية التي لم تنجح في اختراق المناطق بسبب المعركة المستمرة التي خاضتها قوات الأمن ضدهم، ولذا يمكن أن نقرر أن هذه المنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضة التلقائية التي تظهر وراءها بوضوح اليد الموجهة والتي يدل وجودها على فشل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المخلية القانعة بالاحتلال الإسرائيلي لو تركت وشأنها، فالاضطرابات ليست سوى حدث عابر مستمر ولكنها ليست عصياناً مدنياً».

إن إدراك النعام هو العنصرية الصهيونية مقلوبة (حرفياً: على رأسها)، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرغبة الصهيونية في إحلال العنصر اليهودي محل العرب، ولذا فهي تهدف إلى تغييب العرب. ولكن، إن عاد العربي بهذا العنف، ظهر على شاشة الوعي ورفض الغياب، فما العمل إذن... وما الحل؟ الحل النعامي - بطبيعة الحال - أن يدفن المستوطن رأسه في الرمل فيغيب العربي مرة أخرى. ولكن الأمور ليست بهذه البساطة هذه المرة: إذ إن العربي ممسك في يده بحجر - والحجر يؤلم ويجرح وقد يقتل، والحوار المسلح يأتي بنتائج ملموسة في كل من رأس العدو النازفة وخريطته الإدراكية.

وإذا انتقلنا إلى الصقور، فحدِّث ولا حرج، فهم كثيرون، فرئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير صرح بأنه: لا توجد قوة في العالم «لا المتظاهرون ولا الإرهابيون ولا الضغط يمكنهم أن يمنعوا إسرائيل من الاستيطان في كل أجزاء أرض فلسطين»(١٢)، وغني عن القول أن عملية الاستيطان «لا يمكن أن تتم عن طريق الحب والإخاء والإقناع الهادئ» فالعرب ولا شك غير موافقين على أن تؤخذ أراضيهم. ولقد أضاف شامير(١٣): أما أولئك الذين يقولون إننا نحن الإسرائيليين غزاة وأن مثيري القلاقل والقتلة والإرهابيين أصحاب الحقوق الحقيقية، فإننا نقول لهم من أعالي هذا الجبل من على مشارف آلاف السنين من التاريخ أنهم مجرد جراد بالقياس لنا». وكلنا يعرف ماذا يُفعل بالجراد. فالصورة المجازية هنا تحوي داخلها مؤشرات نحو الإبادة. ولكننا من حقنا أن نتساءل أين هذا الجيل، أم أنه جزء من الخريطة الإدراكية الصهيونية. وقد صرح رابين بأن إسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها «ستعيد فرض الأمن حتى ولو كان موجعاً»(١٤). وحسب تجربة الفلسطينيين العرب، نجد أن الأمن الإسرائيلي موجع دائماً. وقد أشار رابين إلى بعض الطرق التي يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجع. فقد حذر المنتفضين أن كل من يتحدى إسرائيل «سيحطم رأسه على صخور هذه القلعة وحيطانها»(١٥) - وصرح إسحق مردخاي قائلاً «إن قوات الأمن ستتخذ جميع الإجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن إلى نصابه، ولن تتوانى في استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف».

وتلجأ القوات الإسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل القواد خارج الوطن. بل إن الإبداع الصهيوني في القمع بدأ يأخذ أشكالاً جديدة. فهناك ما يطلق عليه «حظر التجوال

النشط»[١٦] ويتلخص في اقتحام المنازل في الظلام أثناء حظر التجوال حيث يجري الجنود الصهاينة تفتيشاً عنيفاً داخل البيوت وينهالون بالضرب على رب العائلة والابن الأكبر.

وقد علل قائد الجيش هذا الأسلوب الجديد في القمع بأنه محاولة لإعادة بث الرعب من قبل الجيش في قلوب الفلسطينيين، فالهدف ليس النظام الخارجي وحسب وإنما إعادة الثقة الذاتية للجنود بعد أن أصبحوا أضحوكة طوال أسابيع. ويبدو أن الاجتياح الأخير للبنان («عملية القانون والنظام» كما يسميها الإسرائيليون» يهدف إلى نفس الشيء، فقد وصفت الصنداي تايمز هذه الحملة بأنها تشكل محاولة من جانب إسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بعرض عضلاتها وإظهار أنها عادت إلى مقعد السائق. وقال مردخاي غور: «سيذكّر الاجتياح سكان الأراضي المحتلة بأن الجيش ليس مفككاً»[١٧]. لقد أدرك العدو أنها معركة خاصة بالخرائط الإدراكية.

وقد اقترح شلومو جازيت (رئيس المخابرات الأسبق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الإرهابي كعقوبة، بل يجب هدم كل شيء في محيط قطره ٢٠٠ - ٤٠٠ متر من منزله[١٨]. أما وزير الأديان وزعيم الحزب الديني «المفدال»، فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الإسرائيلية إزالة قرية بيتا في قضاء نابلس من على وجه الأرض تماماً وإقامة مستوطنة تحمل اسم الفتاة اليهودية التي قُتلت فوق أنقاضها، ويجب أيضاً طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية»[١٩].

وقد أدرك رفائيل إيتان، عضو الكنيست الحالي ورئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية الأسبق، بأن الانتفاضة هي الطلقة الأولى في الحرب القادمة، وعلق على دجاجية الجنود الإسرائيليين

وكيف يولون الأدبار أمام الأحجار، وكيف أن العالم كله ينظر ليرى هذا المنظر، وهي اقتراحات وينظر إلى جيش ضعيف وحكومة ممزقة لا تعمل. وقد قرر إيتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة وهي اقتراحات تتسم بكل تبسيطات النماذج المادية العملية والخريطة الإدراكية الصهيونية: «فإذا أشعل العرب إطاراً في شارع رئيسي، فإنه لا بد من جر هذا الإطار إلى أقرب بيت في المنطقة من مكان اشتعاله، وخلال ثوان سيخرج سكان البيت ويطفئون الإطار لأن الإطار المشتعل سيؤدي إلى حرق بيتهم إذا لم يفعلوا ذلك». واقترح أن تُمنع السيارات العربية من السير في الشارع المغلق بوساطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين. وهذا لا يحتاج جيشاً كاملاً بل شرطيين يقفان على حافة الطريق. وأشار إيتان إلى حقيقة هامة وهو أنه بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٧ تم إبعاد (أي تغييب) ٨٠٠ عربي محرض (أثناء حكم المعراخ المعتدل)، ويجب إبعاد ٤٠٠ - ٥٠٠ محرض بل وإبعاد أمهاتهم وأبناء عائلاتهم. والواقع أنه لا يوجد أي إبداع قمعي في اقتراحات إيتان. وكل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة عليه أن يدرس تاريخ الإرهاب النازي ليجد أفكاراً أكثر إبداعية وأكثر منهجية وأعلى كفاءة، فمفهوم العقاب الجماعي ليس من اختراع الصهاينة وإنما هي ممارسة استعمارية غربية قديمة وتقليد راسخ.

ويمعن المستوطنون أيضاً في التشدد، فمنهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماماً. وكما قالت جريدة فرانكفورتر الجماينة فإن: «معظم الإسرائيليين مع خط شامير المتشدد»، و«هدفهم إنهاء الوجود العربي في فلسطين». حتى ينسجم الواقع مع الخريطة الإدراكية الصهيونية التي تغيِّب العرب تماماً. وعندما وقع حادث بيتا (حينما وقعت استيطانية صهيونية صغيرة صريعة رصاص

المستوطنين وأشيع أنها رجمت بالحجارة) «طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالأرض وشطبها نهائياً من الخريطة حتى تكون عبرة للغير»[٢٠]. ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسوية الحساب مع العرب كما سواه الأمريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيداً عن عدسات التليفزيون[٢١].

لقد اقتبسنا حتى الآن كلمات الصهاينة المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فالأقوال لا تعبر عن الموقف بشكل متكامل وإنما تعبر عن التشدد اللفظي للإنسان وعن نيته وقصده وحالته العقلية - أي عن جزء من كل. ولدراسة المدى الحقيقي والكلي لتشدد الإسرائيليين، علينا أن نتجاوز النية والقصد والديباجات لترصد عناصر أخرى مركبة تتجاوز إرادة القائل ذاته، فالتشدد اللفظي، أي الموقف الصقري الكلامي، قد يكون أحياناً بمثابة غطاء لتغطية الموقف الدجاجي أو النعامي الفعلي.

خذ مثلاً رغبة إيتان في أن يمنع مرور السيارات ويكتفي بجنديين يقفان على ناصية الشارع.. هل درس إمكانية إلقاء الحجارة عليهما وأن الجنديين سيحتاجان إلى فرقة عسكرية كاملة لحمايتهما؟ وبخصوص ترحيل مئات القيادات.. ألا يحتاج الأمر لآليات معينة وآلة قمعية معينة ما دامت القاعدة الجماهيرية الملتفّة حول هؤلاء القادة في حالة استنفار؟ ولكن مثل هذه الأسئلة تفترض أن صاحب الاقتراح عنده الصورة الكلية، والأمر ليس كذلك، فالنموذج الإدراكي المادي يجتزئ الحقائق ويستبعد مجموعة من الحقائق الإنسانية والتاريخية، ولذا يتحول الصقر الهائج من منظور الممارسة إلى نعام مضحك. خذ مثلاً رغبة هذا المستوطن

الذي يود ذبح العرب وإبادتهم بعيداً عن كاميرات التليفزيون، تماماً كما فعل الأمريكان في تجربة استيطانية مماثلة، وهذه هي شهوة الصقور. ومع هذا، وبعد التدقيق نجد أن موقفه هذا نعامي تماماً، فهو يعرف أن التجربة الأمريكية الاستيطانية الإحلالية تمت ابتداء من القرن السابع عشر في منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة. تسكنها عدة «أمم» من الهنود، تتسم حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورقتها، ومن هنا كان من السهل إبادتهم بعيداً عن عين التلفزيون الشيطانية. أما هذا المستوطن الصهيوني فقد تمت تجربته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر في منطقة تعجّ بالسكان الذين تحيط بهم ملايين من إخوانهم، كما أنهم ينتمون لتراث حضاري قديم ومركب. وعلاوة على كل هذا، أصبح في وسعهم الآن الحوار مع الكاميرا وبكفاءة غير عادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية والحلم بالمستحيل اللذيذ.

والذي يود إعطاء العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية رغم إدراكه بأنهم أغلبية لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طُرح عليه عدة أسئلة أخرى لظهرت التناقضات الفعلية الكامنة خلف الموقف النعامي المتشدد.

ويجب أيضاً أن نرى التشدد باعتباره تعبيراً عن أزمة حقيقية وعميقة، فالصهاينة - كما أسلفنا - على استعداد لإظهار قدر كبير من التسامح حيال العربي إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة غيار للصهيوني يمكنه استخدامها وتوظيفها لصالحه. حينئذ يمكن للعربي أن، يكتسب كثيراً من الحقوق المدنية وبعضاً من الحقوق السياسية، ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة، أي أن يمارس هوايته إذا كان بلا هوية.

إن غـاب العـربي، وإن قنع وخنع، أي لم يتـحـدَّ الشـرعيـة الصهيونية، فبوسع الصهيوني أن يتخذ موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربي مستأنس تم تطبيعه، أما إن تحول العربي إلى صقر ذي هوية يهاجم دفاعاً عنها، فإن الاعتدال الصهيوني يختفي ويتخلى العدو عن ديمقراطيته الغربية المزعومة، ويضرب حينئذ بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور له مدلولات تختلف عما تود وسائل الإعلام الغربية نقله لنا.

الشخصية القومية الإسرائيلية.

مع هذا، نرى أنه من الضروري أن نحكم على التشدد الإسرائيلي في إطار أوسع بحيث نستخدم مؤشرات أخرى، مثل نسبة النزوح، كمؤشر على التراخي. فالمستوطن الذي يصيح ويطالب بإهلاك العرب، ثم يجري للسفارة الأمريكية في اليوم التالي ليحصل على تأشيرة هجرة، هو في واقع الأمر دجاجة في ريش الصقور. وعزوف الإسرائيليين عن الإنجاب يصلح أيضاً كمؤشر آخر على مدى التشدد والتراخي، فإذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما يقول الصهاينة، وأنا أوافقهم الرأي، فإن من ينجب أكثر هو صاحب العزم والعزيمة. وليقارن من يشاء بين النساء الإسرائيليات والمرأة الفلسطينية «النفوض» التي تنجب الأطفال فتدخل الفرحة على قلبي وتدخل الكآبة على قلب الحسود. ويمكننا أيضاً أن نستخدم مؤشرات مباشرة جداً فنتحدث عن المستوطنين «الذين توقفوا عن إصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكداً كما كان من قبل»(٢٢).

إن التشدد ينصرف، إذن، إلى الصياغة اللفظية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك، فهو دالّ دون مدلول، أو دالّ جزئي

وحسب. والآن، هل يمكننا القول، على طريقة علماء «الشخصية القومية»، بأن التشدد اللفظي عند الإسرائيليين ينم عن حبهم للألفاظ وأنهم يطربون للغة، وأن لغتهم - نظراً لكونها لغة قديمة متحجرة - تفرض عليهم صيغاً لفظية لا تعبّر بالضرورة عن حقيقة موقفهم؟ أنا لست من المتحمسين لقضية دراسة «الشخصية القومية» هذه (خاصة وأنها استخدمت كعصا لضرب الإنسان العربي في العقود السابقة)، إذ إنني أرى أن «السمات القومية للإنسان، إن وجدت وتم تعريفها، وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها في غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للنكوص، للخير أو للشر، وهي سمات لا تؤدي إلى هذا الموقف أو ذاك بشكل حتمي. فالسمات في حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسيري لسلوك الإنسان، وإنما تصلح كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق. وأعتقد أن نفس الشيء ينطبق على الإسرائيليين، فلا يمكن القول بأن الإسرائيلي شجاع بطبيعته أو أن اليهودي طماع بطبيعته وهكذا.

ومع هذا، نجد أن من أهم الاستجابات للانتفاضة تلك التي حاولت أن توجه النقد للشخصية القومية الإسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا في تطبيعها. ومن المواضيع المتواترة في الكتاب الصهاينة موضع افتقاد اليهود للسلطة، فاليهود (عبر التاريخ) - كما يزعم الصهاينة - لم يمارسوا السلطة السياسية قط. وقد بعث المعلقون الإسرائيليون مرة أخرى هذه الفكرة وبدأوا في انتقاد الشخصية القومية الإسرائيلية من هذا المنظور باعتبارها شخصية تفتقر إلى «الإحساس بالدولة» وتفتقد المقدرة على استخدام السلطة. ومن أهم الشخصيات التي ذكرت هذا الموضوع عدة مرات إسرائيل هاريل، رئيس مجلس المستوطنات في الضفة الغربية

والقطاع ورئيس مجلة نيكودا لسان حال المستوطنين. قال: إن الإسرائيليين يتصرفون كاليهود الألمان في الكريستال نايت أي ليلة الكريستال (التي قام النازيون فيها بمهاجمة ممتلكات يهود ألمانيا وتحطيمها) «فالإنذارات في كل مكان بأن الكارثة محدقة، ولكننا أصبنا بالشلل»(٢٣). وقد أشار إلى ما أسماه الخلل الأساسي في الشخصية القومية، فالإسرائيليون - حسب تصوره - يفتقرون إلى الإحساس بأنهم لا بد أن يشكلوا دولة. ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الأخرى فقال: «في أوربا أو في أي مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لأن شعباً آخر يعيش فيها»(٢٤).

وقد كرر يحزقئيل درور نفس الفكرة تقريباً إذ أكد أن «الشعب اليهودي» يفتقر إلى تقاليد الدولة، أي ممارسة الحكم(٢٥)، وأن بعض المؤرخين يرون أن هذه عقبة كأداء في بناء دولة إسرائيل، مما يدل على أنها إشكالية حقيقية بدأت تطلّ برأسها.

ومن أهم الشخصيات التي تخصّصت في الشخصية «القومية» العربية وبين مدى قصورها، يهوشافط هركابي الذي عمل مستشاراً للحكومة الإسرائيلية للشؤون العربية، وبتغير موازين القوى، نجد أنه حول مبضع الجراح للشخصية القومية الإسرائيلية. فكرر ما قاله هاريل ودرور عن إخفاق الإسرائيليين في فهم كيف يمكن للدولة أن تتصرف تجاه الدول الأخرى، وفسر هذا الإخفاق على أساس أنه نقطة قصور كامنة في التقاليد اليهودية(٢٦).

ويذهب درور إلى أنه يمكن تعويض ذلك الافتقار إلى تقاليد الدولة، الذي تعيش في ظلاله الشخصية الإسرائيلية، عن طريق بذل جهد واع من جانب الإسرائيليين في التفكير من خلال التاريخ(٢٧) أي أن الافتقار إلى تقاليد الدولة هو ما كنّا سميناه في أوائل السبعينيات «رفض التاريخ أو الحلم بنهاية التاريخ»، أي أن

يعيش المرء داخل الأسطورة الذاتية التي لا تعكس الواقع التاريخي بكل جدلياته ونتوءاته ويجابه الواقع من خلال أحلامه وأوهامه وحسب. ويبدو أن هركابي هو الآخر يربط بين رفض التاريخ وهذه السمة في الشخصية القومية الإسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحاً مختلفاً يسميه «إضفاء طابع ذاتي على عناصر النجاح». وهو يرى أن الحركة التصحيحية الصهيونية مصابة بهذا الداء أكثر من غيرها، إذ إن أتباعها كانوا يودون أن يقفزوا على الواقع للوصول إلى الدولة. ولكنه في مكان آخر من المقال ذاته يعمم هذه المقولة على كل الصهاينة ويشير إلى أن العقل الإسرائيلي ككلّ مصاب بهذا المرض العضال فيقول: «إن مشكلة إسرائيل ليست دائماً سياسية وإنما «وراء سياسية» (ميتا سياسية) أحياناً، وتتحدد هذه المشكلة في تشوه تفكيرها الأساسي: تمجيد الوهم، والقصور في إدراك أن الواقع يتحدد بحدود الممكن، وأن ما هو غير واقعي لا يوجد ولن يوجد، وتمجيد الإرادية (Voluntarism) كما لو أن الإرادة وحدها كافية لتحقيق الأهداف. «ونحن الإسرائيليين نرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن للعدو إرادة لا بد أن تؤخذ في الحسبان. ونضع سياستنا بشكل مجرد حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش في فراغ [الأسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمي والزمن ومتطلباتها من الآخرين. وكل هذا نابع من ضيق الأفق المتعارض مع التاريخ (anachronistic)». إن هذا الوصف، أي «فقدان الارتباط بالواقع»، يبدو وكأنه «كتالوج» جاهز عند هركابي. فقد ذكر في طي نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل. ولكن الطريف هذه المرة أنه لا يكتفي بانتقاد الشخصية الإسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تسقط في هذه الذاتية المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التي يعبر

عنها الأعداد الهائلة من العرب واتساع أرضهم قد أنقذتهم من الاضطرار للجوء للعناصر الذاتية لضمان النجاح، بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع... إن الاتجاه العربي ينحو دائماً نحو التمثيل الزمني للعناصر الموضوعية التي تضمن نجاحهم». وهذه الأقوال تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عنا في أواخر الستينيات. لقد تغير إدراك خبير الشخصية «القومية» العربية مع تغير موازين القوى.

هذا الانغماس في الذاتية يعبّر عن نفسه - من منظور هركابي - في اتجاه انتحاري بين الإسرائيليين. فالقضية التي تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهايد» (تفرقة لونية) وإنما القضية هي أننا «لن نكون» إذا ما استمررنا متخندقين في الأسطورة الخاصة. ويضرب هركابي مثلاً مشابهاً وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٢٥ - ١٣٢ ميلادية). فأعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب تدفعهم حمى مشيحانية ترى أن نهاية الأيام (أو التاريخ) وشيكة. وقد أعلن بعض الحاخامات أن باركوخبا زعيم التمرد هو الماشيح (المسيح المخلّص اليهودي الموعود). وبدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان، أعلن باركوخبا وأتباعه التمرد على روما، فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودي الهزيل في فلسطين. ويسمي هركابي مرض الذاتية الذي يؤدي إلى الانتحار «أعراض باركوخبا»[٢٨]، وهو ينصح الإسرائيليين بتغيير هذا الجانب من شخصيتهم القومية.

ولنلاحظ أن سمة قومية مثل «الاتجاه الانتحاري» كانت تستخدم في الماضي لتهديدنا، والآن يبين واحد من كبار المفكرين الإسرائيليين أنها في الواقع نقطة قصور، مما يبين أنها سمة

محايدة. وأعتقد أن ما يسميه «الاتجاه الانتحاري» هو ما أسميه أنا «الاتجاه النعامي»، وأعتقد أيضاً أن الصورة التي استخدمتها أكثر دقة لأنها ليست متطرفة ولأنها مرتبطة بصور إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والنعام والصقور. أن الخريطة الإدراكية الصهيونية قد دخلت عليها تعديلات كثيرة نتيجة للحوار المسلح.

وبعد، هذه محاولة لرصد استجابات المستوطنين الصهاينة للانتفاضة المباركة، وهي محاولة ترمي إلى تجاوز الثنائيات المتعارضة التي تسم النموذج الإدراكي الغربي (المادي البسيط) وتحاول أن تطرح بدلاً من ذلك نموذجاً أكثر تركيباً لأنه يستعيد الإنسان/ الإنسان مرة أخرى ككائن حي: ظاهره غير باطنه، قوله غير فعله، وعيه غير لاوعيه، قصده غير سلوكه. هذا لا يعني الانفصال الكامل للواحد عن الآخر فالظاهر يعبر عن جزء من الباطن، والقول يؤثر في الفعل ويتأثر به، والوعي يتداخل مع اللاوعي، والقصد والسلوك يتفقان ويختلفان حسب الظروف والعوامل.

وهذا النموذج الإدراكي المركب المقترح هو وحده الذي يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك العدو. ولعل مراكز البحوث العربية تنفض عنها التبسيطات المادية الإدراكية التي زرعت في قلوبنا الهزيمة وشوهت رؤيتنا لأنفسنا وللآخر.

هوامش
الفصل السادس

(١) يائيل اسكيد، الجيروساليم بوست، ٢٥ يناير ١٩٩٨م.

(٢) الجيروساليم بوست، ٨ فبراير ١٩٨٨م.

(٣) الجيروساليم بوست، ٨ فبراير ١٩٨٨م.

(٤) الهيرالدتريبيون، ٦ يناير ١٩٨٨م.

(٥) الوطن، ٤ أبريل ١٩٨٨م.

(٦) الوطن، ٤ أبريل ١٩٨٨م.

(٧) الجيروساليم بوست، العدد الدولي، ٢٠ فبراير ١٩٨٨.

(٨) لعبة الحبل بين عسكر إسرائيل وسياسييها، الشرق الأوسط، ١٣٠ يوليو ١٩٨٨م.

(٩) الجيروساليم بوست، ٦ فبراير ١٩٨٨م.

(١٠) النيويورك تايمز، ٣١ يناير ١٩٨٨م.

(١١) ملحق الجمعة، ١٨ ديمسبر ١٩٨٧م.

(١٢) تايمز، ٣ يناير ١٩٨٨م.

(١٣) النيويورك تايمز، ٢ أبريل ١٩٨٨.

(١٤) تايم، ٤ يناير ١٩٨٨.

(١٥) النيويورك تايمز، ٢ أبريل ١٩٨٨.

(١٦) هاآرتس، ٢٦ يناير ١٩٨٨.

(١٧) القبس، ١٠ مايو ١٩٨٨م.

(١٨) حداشوت، ١٠ يناير ١٩٨٨م.

(١٩) الوطن، ٢٤ أبريل ١٩٨٨م.

(٢٠) القبس، ٢٢ أبريل ١٩٨٨م.

(٢١) تايم، ٤ أبريل ١٩٨٨م.

(٢٢) عبد العظيم حماد، ومحمد الحناوي، الأهرام، ٢ فبراير ١٩٨٨م.

(٢٣) نيوزويك ١٥ فبراير ١٩٨٨م.

(٢٤) ابراهام رابينوفيتش، الجيروساليم بوست، ٢٠ يناير ١٩٨٨م.

(٢٥) الجيروساليم بوست، ٣ فبراير ١٩٨٨م.

(٢٦) الجيروساليم بوست، ١٩ فبراير ١٩٨٨.

(٢٧) الجيروساليم بوست، ٢ فبراير ١٩٨٨م.

(٢٨) الجيروساليم بوست، ٤ أبريل ١٩٨٨.

الفصل السابع
الاستجابة الإسرائيلية لانتفاضة الأقصى

الانطباع العام الذي ينقله لنا الإعلام الغربي، ومع الأسف الإعلام العربي، أن الفلسطينيين شعب يقاتل لأنه من هواة القتال الذي لا يُرجى من ورائه فائدة، ويضحي بنفسه لأنه يستعذب الألم، شعب يذهب ممثلوه يومياً يحملون أواني الدم الغالي ليسكبوه بشكل آلي ومنتظم عند آلهة الانتقام الصهيونية الوثنية، فهو شعب دخل في طريق العذاب المسدود، مما يجعل الجهاد والتضحية أموراً لا طائل من ورائها. وقد استخدم الصهاينة والإعلام الغربي لفظ «الإرهاب» للإشارة لأعمال «المقاومة» ولفظ «الانتحار» للإشارة إلى عمليات «الاستشهاد»، وتبنت بعض وسائل الإعلام، فضلاً عن معظم النخب الحاكمة، هذين المصطلحين. وفي هذا الإطار الإدراكي، لم تعد القضية هي «تحرير الأرض السليبة»، أو «استعادة الحقوق الضائعة»، أو «التصدي للعدو وهزيمته»، أو «دعم الانتفاضة سياسياً ومالياً وعسكرياً وعدم الاكتفاء بالدعم اللفظي الرتيب»، أو «الضغط من أجل تحويل المكاسب الميدانية والعسكرية للانتفاضة إلى مكاسب سياسية»، أو «رد الاعتبار للأمة العربية واستعادة كرامتها». بدلاً من هذا كله، تصبح القضية «ضبط النفس» و«رفع المعاناة عن الشعب

الفلسطيني»، و«إيقاف العنف»، وفي رواية أخرى «الإرهاب»، ووقف العمليات الانتحارية (وليس الاستشهادية)، بل و«العودة إلى مائدة المفاوضات»، و«التنازل عن حق العودة حقناً للدماء» (فاذهب أنت وربك فقاتلا.. إنَّا ها هنا قاعدون). ونحن لا ندري هل هذا الموقف الإعلامي المتخاذل هو نتيجة خريطة إدراكية انهزامية التي تجعل البعض غير قادرين على رصد أي شيء سوى مؤشرات الهزيمة أم أنه يتم بتوجيه من بعض الحكومات العربية التي لا تكف عن الحديث عن قوة العدو وعن خيار السلام باعتباره «خياراً استراتيجياً» والتي يهمها توليد خريطة إدراكية انهزامية داخل العقل العربي عن طريق إخفاء حجم الانتصارات الفلسطينية على العدو.

ولكننا لو قرأنا رصد الصحافة الإسرائيلية لأحداث الانتفاضة وأثرها على الوجدان الإسرائيلي وإدراكه للواقع لوجدنا صورة مغايرة تماماً، تغير من إدراكنا تماماً لأبعاد انتفاضة الأقصى. وقد حاولت أن أجد أياً من الطيور الأربعة الإدراكية السابقة التي ذكرتها في الفصل السادس، فطبيعة انتفاضة الأقصى تختلف عن انتفاضة ١٩٨٧. وحتى نعرف ماذا حدث في المستوطن الصهيوني بعد انتفاضة الأقصى وماذا حدث للخريطة الإدراكية الصهيونية، فلنحاول ابتداءً أن نرسم صورة للمستوطنين الصهاينة قبل اندلاعها التي ذكرتها في الفصل السابع، استناداً للصحافة الإسرائيلية. تصوَّر المستوطنون الصهاينة، خلال السبع سنوات السمان (ما بين توقيع اتفاقية أوسلو واندلاع انتفاضة الأقصى) أنهم سيتمكنون من إحكام هيمنتهم على الشعب الفلسطيني وعلى الأرض الفلسطينية من خلال سلطة فلسطينية، لا سلطة لها، منعدمة السيادة تماماً، سلطة يمكن إفسادها عن طريق رشوتها،

سلطة سياسية تقوم بإلغاء الحياة السياسية وتحكم بشكل مطلق فتُهمش الجماهير، مما يؤدي إلى ضمور الإحساس القومي والديني لديها وتتحول بالتالي إلى مجرد وحدات اقتصادية إنتاجية استهلاكية تتبنى رؤية اقتصادية محضة، ومن ثم تنسى الكرامة والوطن وتركز بدلاً من ذلك على تحسين مستوى المعيشة، وبالتالي يصبح من الممكن رشوتها هي الأخرى (وهذه هي رؤية بيريس لما سماه «الشرق الأوسط الجديد»). ولوّح الغرب والصهاينة للسلطة وللجماهير الفلسطينية بأشياء وردية مثل تحول فلسطين/ إسرائيل (والأردن) إلى سنغافورة وهونج كونج الشرق الأوسط، بلد بلا تاريخ، ومحدود السكان، ولكن إنتاجيته مرتفعة إلى أقصى حد ومستوى المعيشة فيه مرتفع إلى درجة تدير رأس الاقتصادي الاستهلاكي. وكل من تسول له نفسه أن يقف ضد هذه الخريطة الإدراكية. تقوم قوات الأمن التابعة للسلطة بترويضه أو القضاء عليه إن اقتضى الأمر. أي أن علاقة الكيان الصهيوني بالسلطة الفلسطينية - حسب تصوّر الصهاينة لاتفاقية أوسلو - هي علاقة كولونيالية في جوهرها، تلعب فيها الدولة الصهيونية دور الراعي الإمبريالي الذي يوظف الدولة المستعمَرة لصالحه إما مباشرةً من خلال قواته العسكرية أو بشكل غير مباشر من خلال النخبة المحلية الحاكمة. وهكذا كان من المفترض في السلطة الفلسطينية أن تلعب دور الدولة/ السلطة الوظيفية (المملوكية) المنبتة الصلة بالجماهير الفلسطينية، التي تضطلع بوظيفة تسخير الجماهير لصالح الراعي الإمبريالي، نظير بعض المكاسب التي تحققها لنفسها.

وقد استنام المستوطنون الصهاينة لهذه الخريطة الإدراكية اللذيذة التي كان من المفترض أن تجعلهم قادرين على الاستمرار

في زيادة المستوطنات وفي تسمينها وتحسينها والاستمتاع ببحبوحة العيش دون أن يدفعوا أي ثمن. وقد وصلت الطمأنينة الزائفة التي تمتع بها المستوطنون إلى درجة أن تكون الخريطة السياحية التي أصدرها المجلس الإقليمي لمستوطنات غور الأردن قبل اندلاع الانتفاضة ترجمة مباشرة للخريطة الإدراكية الصهيونية، فهي لا يظهر عليها أي قرى أو مدن عربية، كأنها قد أُزيلت، أو كأنها لم توجد أصلاً. ولذا فإن غور الأردن - حسب هذه الخريطة الوهمية - هو أكثر الأماكن أمناً على وجه الأرض. حقاً! إنها أرض بلا شعب أو، على أسوأ تقدير، أرض شعبها مكبل بالأغلال يمكن توظيفه وتسخيره.

ومما دعم هذا الإدراك أنه، خلال العام الأخير من ولاية نتنياهو وطوال فترة ولاية باراك، تكثفت عملية توسيع المستوطنات، فتضاعفت مساحة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٩٣ (توقيع اتفاقية أوسلو) وحتى عام ٢٠٠٠.

وكان انتخاب باراك بالنسبة للكثيرين يمثل دخولاً إلى الشوط الأخير في السباق نحو إنهاء الصراع التاريخي. وقد ترافق هذا مع مناخ اقتصادي متفائل يعود أساساً إلى ازدهار شركات التكنولوجيا المتقدمة (هاي تك). كل هذا منح المجتمع الإسرائيلي، المرهق بفعل أعوام كثيرة من الصراع، أملاً بمستقبل جديد تستطيع إسرائيل أن تصبح فيه واحدة من الدول الغربية التكنولوجية(١) («كئيبون وعاجزون ويرفضون التعلم»).

كانت الحياة بالنسبة للمستوطنين الصهاينة حياة وردية، «فكان سكان مستوطنات غور الأردن [على سبيل المثال] مقتنعين تماماً بأنهم على وشك دخول مرحلة من الانتعاش. فبدأت إذاعة المنطقة

حملة لجذب مستوطنين جدد. واشترك في الحملة مغنٍّ إسرائيلي دعا المستوطنين إلى الانتقال إلى الوادي ليحققوا أحلامهم: فلتنتقل إلى بيت خاص، في مستوطنة متميّزة، ولتتمتع بالهدوء والاستقلال في أجمل بقعة في وادي غور الأردن»(٢).

وبدأت مستوطنة يافيت حملة وصفت بأنها ناجحة في اجتذاب عشرات الأسر التي عبّرت عن رغبتها في الاستيطان (وكانت من بينهم أسرة/ زوج من المساحقات). وقد فكّرت بعض الأسر في إقامة مركز كلى ومزرعة بيئية (لا تعتمد على أي سماد صناعي). وكانت هناك امرأة متخصّصة في الروحانيات قررت أن تعيش بمفردها في مبنى مهجور لتقيس درجة الروحانية داخلها، وتوصلت إلى أن الطاقة الكامنة فيها ستكفيها لمدة عام على الأقل! (ولا أدري ما هي أدوات القياس التي استخدمتها).

ثم جاءت ثماني أسر وسجل أفرادها أنفسهم في حي «ابن بيتك بنفسك». وكان انطباع أبناء مؤسسي المستوطنة إيجابياً إلى درجة أنهم قرروا العودة إليها بعد أداء الخدمة العسكرية. وتم بيع ١٣٠ منزلاً بعد حملة التسويق. وهكذا عادت الحياة مرةً أخرى إلى مستوطنة يافيت وأصبحت المنطقة المخصصة للعب الأطفال مليئة بالحياة. وبدأت الحضانة تعمل مرةً أخرى، وعادت الليالي الاجتماعية من جديد. وغمرت السعادة الجميع، خاصة كبار السن. وكانت الحياة الوردية تسير على ما يرام بشكل روتيني، فكانت آلاف السيارات تستخدم الطريق العام رقم ٩٠ كل يوم. وكانت هناك محطة بنزين تقف فيها السيارات، وعادةً ما كان قائدو السيارات يطلبون «ساندوتش»، أي أن كل شيء كان على ما يرام. إن الخريطة الإدراكية الصهيونية التي تغيّب العرب هيمنت مرة أخرى على العقل الصهيوني بعد أن كانت قد اهتزت بفعل انتفاضة

١٩٨٧ والحوار المسلَّح الذي دار بين المستوطنين الصهاينة والمقاومة الفلسطينية بكل فصائلها.

وقد أشرنا في فصل سابق إلى نمط التطرف والاعتدال الاستيطانيين، ويبدو أن هذا النمط يتبدى مرة أخرى في انتفاضة الأقصى. فحين اندلعت الانتفاضة، اهتزت الخريطة الإدراكية للمستوطنين، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان، فالدنيا تميد من حوله. ولذا بحث المستوطنون عن مخرج عسكري أمني سريع حاسم، فانتخبوا شارون (البلدوزر) ليحل محل باراك الضعيف وانتعشت آمالهم مرةً أخرى لعله يغيِّر الواقع الذي يتحدى خريطتهم الإدراكية. فشارون صاحب فكر صهيوني أسطوري توسعي إرهابي. وقد طرح شارون خطة المائة يوم وخطة «أورانيم - جهنم»، وطرح شعار «دعوا الجيش ينتصر» واستُخدمت كل الأسلحة في الترسانة العسكرية الصهيونية، ووصل الإرهاب الصهيوني إلى الذروة (أو الهوة)، ودخل مرحلته الشارونية. وهذا ما حدث في جنوب إفريقيا من قبل، فمع تصاعد مقاومة السكان الأصليين للمستوطنين البيض لجأ هؤلاء للبطش ولضرب المقاومة بيدٍ من حديد على الطريقة الشارونية. ولكن المقاومة استمرتْ بل وتصاعدت، رغم بطش النظام العنصري، إلى أن اكتشف المستوطنون البيض عدم جدوى الإرهاب المؤسسي، وانتهى الأمر بسقوط النظام العنصري. أي أن تطرف المستوطنين هو مؤشر على أن الرسائل المسلحة التي يرسلها السكان الأصليون بدأت تصل إليهم، وأن التطرف والشراسة ليسا سوى المرحلة قبل الأخيرة التي تسبق تحطم الأسطورة وتقويض الخريطة الإدراكية الصهيونية العنصرية والرضوخ للأمر الواقع..

ومما لا شك فيه أن شارون أشبع شهوة المستوطنين للانتقام،

إلا أنه أخفق تماماً في تحقيق الأمن لهم رغم تصاعد البطش الصهيوني وشراسته. ولو نجح شارون في تنفيذ مخططه لضرب الانتفاضة لكرَّس للخريطة الإدراكية الصهيونية ولبعث الحياة فيها، لكن فشله يعني في واقع الأمر اهتزاز هذا الوهم، مما يعني سقوط الحلم الصهيوني والخريطة الإدراكية الصهيونية (وهل يمكن للجيوب الاستيطانية أن تعيش دون حلم أو وهم أو أساطير؟). لقد أبدى الفلسطينيون صلابة لم يتوقعها الصهاينة. وهذا ما لاحظه الصحفي الإسرائيلي جدعون عيست ذلك إذ قال: «يصعب بعض الشيء أن نخمّن كيف يمكن لزيادة الرعب العسكري أن تؤثر في الفلسطينيين أكثر مما تفعل. إن شارون أخفق تماماً في تحقيق أي أمن، وتحوّلت الانتفاضة إلى حرب استنزاف مستمرة»(٣).

وكما سقطت الخريطة الإدراكية الصهيونية تحت وطأة الانتفاضة سقطت نظرية الأمن الإسرائيلي، وتلك النظرية التي قامت على أساس حرمان الفلسطينيين من السلاح واستخدام أكبر قدر من القوة ضدهم لتغييبهم وتهميشهم من خلال تهشيمهم. ولكن الجهاد يستمر بالإمكانات المتاحة، ويتم إنتاج الأسلحة داخلياً بل وكثيراً ما يأتي من خلال مصادر إسرائيلية، كما أن جميع القوى والفصائل تشارك في الجهاد وتمارس العمل المسلح جنباً إلى جنب.

ولا شك أن استمرار الانتفاضة أو حرب التحرير الفلسطينية هو وحده الكفيل بتغيير الخريطة الإدراكية الصهيونية فهي ستفرض على الصهاينة أن يدركوا أن فلسطين ليست «إرتس يسرائيل» وأن للفلسطينيين وجوداً متجذراً في وطنهم. إن استمرار الانتفاضة وهزها للمجتمع الإسرائيلي ولخريطته الإدراكية من جذوره هو الطريق الوحيد لتحرير الوطن، لأنه إذا توقف الجهاد وتوقفت المقاومة وحرب التحرير، فإن الصهاينة سيغوصون مرةً أخرى في

أحلامهم الاستيطانية ويظهرون المزيد من التطرف واللاعقلانية ويعودون للخريطة الإدراكية العنصرية.

فقدان الإحساس بالأمن وفقدان الاتجاه.

يبدو أن رسالة الانتفاضة باعتبارها ظاهرة لا يمكن محوها من الوجود (على خلاف ما وعد به شارون) تصل للمستوطنين الصهاينة وتقوض من خريطتهم الإدراكية. وكي نفهم هذا الجانب من أثر الانتفاضة على التجمّع الصهيوني وعلى الخريطة الإدراكية الصهيونية، علينا أن نتجاوز تصريحات شارون الشيطانية والغارات الجهنمية التي تشنها الطائرات الصهيونية، والمذابح الدموية التي تُدبرها آلة القمع الصهيونية ضد الفلسطينيين، والحملات الإرهابية التي تقوم بها القوات المسلحة الصهيونية، والأكاذيب المصقولة التي تروج لها آلة الإعلام الصهيونية، فلنتجاوز كل هذا وصولاً إلى استجابة المستوطن الصهيوني لما يحدث من حوله. فالمستوطنون يطالعون الصحف الإسرائيلية التي تستخدم كثيراً من الصور المجازية والعبارات الموجزة الدالة التي تنقل لهم الحقيقة كاملة. فالانتفاضة، حسبما جاء في الصحف الإسرائيلية، ليست مجرد هبّة بل هي «حرب استنزاف» أغرقت إسرائيل في «لجة الدماء»[٤] وأدخلتها في «دائرة دموية»[٥]. إنها «رقصة الموت» ومباراة «بينج بونج مرعبة»[٦] تسبّبت في فيضان «أنهار الدم»[٧]. كما أدّت إلى الغوص في مياه راكدة، وإلى الغرق في «المستنقع الذي غرقت فيه قواتنا بدءاً من الثمانينات» (في إشارة واضحة للمستنقع اللبناني). وتشير الصحف الإسرائيلية للعام الأول من الانتفاضة بأنه عام «مضرج بالدماء»[٨]. وأنه «الأسوأ في تاريخ إسرائيل في كل ما يتعلق بمواجهة الإرهاب»[٩].

وقد وصف أحد الكتّاب الموقف بهذه العبارة الدالّة «صغيرة هي المسافة بين الخوف والذعر، والجمهور الإسرائيلي يعيش بين هذا وذاك»(١٠) وأين هذا من الخريطة الإدراكية الصهيونية قبل الانتفاضة؟!.

والذعر هو الذي دفع أحد جنود الاحتياط لأن يكتب رسالة مفتوحة (نشرت على موقع صحيفة يديعوت أحرونوت تناقلتها الصحف الإسرائيلية الأخرى). قال فيها بكل صراحة إنه «خائف من الموت بلا سبب كأبله، على الرمال النتنة المسماة قطاع غزة»(١١)... «أبله عائلة ثكلى...».

ويسود نفس الإحساس بالذعر النكت الشائعة الآن في إسرائيل إذ يقول مستوطن لصديقه: «سأحضر إلى منزلك بالأتوبيس وأمنيتي أن أنجح في ذلك»(١٢)، فأبسط الأمور، مثل رحلة الأتوبيس، أصبحت مسألة محفوفة بالمخاطر. وبعد أن تحولت المستوطنات إلى مسرح للخوف والرعب، كتب يهودا جولان ساخراً: «يمارس سكان مستوطنة جيلو تسلية جديدة: مشاهدة إطلاق النار... يستعدون كل مساء للعرض اليومي المجاني الخاص بالضاحية»(١٣).

والصورة العامة في التجمّع الصهيوني قاتمة لأقصى حد. ففي مقال ليغئال موسكو تحدث عن الصمت الذي يلف المدينة «لا توجد سيارات، وحتى المشاة القلائل يخفضون أصواتهم. كل المدينة كوادي الأشباح»(١٤).

وقد ظهر في إسرائيل ما يسمى «حضارة البقاء في المنزل»، وهي أن الناس يفضلون البقاء في المنزل ولا يذهبون إلى المطاعم إلا نادراً، ولذلك فمعظم المطاعم فتحت خدمة تيك أواي. وحتى حينما يذهبون إلى مطعم لا يجلسون في الموائد التي توجد في

وسط المطعم، بل يفضلون الجلوس وراء العمود: وتبدأ علامات الراحة تظهر عليهم، كما لو كانوا يحاولون كبت أية مخاوف بداخلهم. ولكن إحدى البالونات تنفجر بدويّ، فينفتض كل من في المطعم هلعاً ويتذكر الجميع أنهم ليسوا في مطعم عادي ولا في بلد عادي(١٥). وهكذا، في لحظة دالّة، تحطم الضوضاء واجهة الهدوء.

وقد أكد يوئيل ماركوس أهمية الخريطة الإدراكية حين قال: «الحقيقة المرة أننا لم ننجح في تصفية الإرهاب ودحره بالقوة «بل إن الفلسطينيين زرعوا من خلال أعمالهم الإرهابية أجواء من الخوف والجزع في الوقت الذي لم تنجح فيه إسرائيل في زرع خوف مشابه في أوساطهم»(١٦).

لكل هذا، ليس من الغريب أن أحد استطلاعات الرأي وصف الوضع السائد في إسرائيل بأنه يسود «ارتباك شديد، وحيرة تزداد تعاظماً. فالجمهور يركض مذعوراً من هنا إلى هناك، وهو على استعداد للإمساك بكل قشة تقع في طريقه من أجل محاولة التخلص من هذا الوضع، حتى لو كان ذلك بقول الشيء ونقيضه. فهو يريد هذا وذاك بنفس القدر.. الفصل من طرف واحد أو التوصل إلى اتفاق.. الحوار مع القيادة الفلسطينية أو تدميرها.. التحاور مع العرب في المناطق المحتلة أو طردهم إلى الدول العربية المجاورة». وهذا التردد والتذبذب شاهد على أن الخريطة الإدراكية الصهيونية قد اهتزت بعنف وبدأت تتآكل ولم تعد تصلح للتعامل مع الواقع الانتفاضي الجديد.

وقد ظهر إحساس عميق بالقدرية، فقد أكد يوئيل ماركوس أن شارون «أدخل الإسرائيليين في دائرة دموية مفرغة لا يمكن الخروج منها... الجمهور متعب ومرهق ومتشائم.. طاقة إسرائيل

تم تقويضها. ورغم أن إسرائيل عضو في نادي أقوى خمسة جيوش في العالم وفي نادي الدول النووية الثماني فقد بلغت النقطة التي لا يمكن لها أن تصل فيها إلى حل عسكري مع الفلسطينيين»(١٧) . كما أن الجيش، كما جاء في معاريف(١٨)، تتآكل قوته بشكل منظم بعد أن غرق في مستنقع الانتفاضة. وقد وصل الأمر إلى درجة أن المطلوب هو «جندي في كل دكان، في كل موقف سيارات، في كل محطة أتوبيسات، وسبعة منهم في كل مفترق طريق». ولكل هذا، ذكر أليكس فيشمان في مقال له أن سياسة الأمن الإسرائيلية تحتضر، مشيراً إلى أن الوضع الأمني الذي تعيشه إسرائيل يعتبر إفلاساً أمنياً يُلزم المطبخ الأمني باتخاذ قرارات تكسر دوامة ردة الفعل التي تسحب الطرفين في عناق الموت نحو الهاوية.

لقد وصل العقل الإسرائيلي مرةً أخرى إلى حالة «إين بريرا»، وهي عبارة تعني «لا خيار». وكما قال يغئال موسكو الذي سبقت الإشارة إليه: «ليس هناك ملاذ في هذه البلاد. الأعصاب متوترة، ووصلت لدى البعض إلى حد الانفجار، ورغم ذلك فقد سيطرت سلبية غريبة على الجميع. الناس ينظرون إلى حجم الدم اليومي كقضاء وقدر، تماماً مثلما ينظر البائسون في بنجلادش إلى الفيضانات»، وكأن الانتفاضة إحدى قوانين الطبيعة التي لا يمكن التصدي لها.

وعبارة «لا خيار» كانت تعني في الماضي أن المستوطن الصهيوني محكوم عليه بالدخول في حروب مستمرة، الواحدة تلو الأخرى لمدة طويلة، ولكن كان الاعتقاد الصهيوني الراسخ أن ثمة مخرجاً في نهاية النفق المظلم من خلال ما يسميه الفكر الأمني الإسرائيلي «الجدار الحديدي»، أي أن يبني المستوطنون جداراً

حديدياً حول أنفسهم لا يمكن للعرب اختراقه، مما يضطرهم للرضوخ للأمر الواقع والاقتناع بأنه لا يمكن هزيمة هؤلاء الوافدين من الغرب.

ولكن، بدلاً من الجدار الحديدي، ظهرت عبارة «العجز الأمني» فهي حالة من «إين بريرا» دون أمل. أو كما قال أحد الكتّاب: «إن المجتمع الإسرائيلي يشعر باليأس مثل قطيع بلا راعٍ، محاط بذئاب مجنونة»(١٩) . كما قال آخر: «ليلة سعيدة أيها اليأس... والكآبة تكتنف إسرائيل»(٢٠). ولذا، فإن هآرتس تطرح شعاراً جديداً للصهاينة: «دعونا نأكل ونشرب فسوف نموت غداً»(٢١).

ويمكننا الآن أن نطرح سؤالاً: ما هو الأثر النفسي لهذا الإحساس بعدم الأمن؟ كفانا الباحثون الإسرائيليون مؤونة البحث، فقد جاء في جريدة هآرتس ٢٢ أن عدد المرتادين على عيادات الأطباء قد زاد بشكل كبير في الآونة الأخيرة رغم أنهم ليسوا مرضى من الناحية العضوية وإنما يعانون من ضغوط وتوتر على خلفية الأحداث الأخيرة [أي الانتفاضة]. وقد نشرت جريدة معاريف(٢٣) أن وزارة الصحة الإسرائيلية فتحت مراكز استعلامات هاتفية يستطيع المواطنون عبرها تلقي مساعدات نفسية. كما بيّنت يديعوت أحرونوت(٢٤) أن شركات الأدوية أفادت بأن هناك ارتفاعاً بنسبة ٥٠٪ في استهلاك المهدئات والمسكنات.

وقد نشرت كل من هآرتس وبنئيم(٢٥) عن ظاهرة يسميها علماء النفس ظاهرة «العجز المكتسب». ولشرح هذه الظاهرة، تقول الصحف إنه أجريت تجربة عُرّض أثناءها كلبان لصدمات كهربائية وأعطي واحد منهما الفرصة للفرار، أما الآخر فقد حُرم منها، فاكتسب الأول حساً سريعاً بتجنب الصدمات

الكهربائية من خلال القفز إلى الجهة الآمنة، أما الثاني فقد تكيف تماماً وتقبل الموقف بخنوع، حتى أنه حينما أتيحت له فرصة الهرب، في تجربة أخرى، لم يغتنمها. فالعجز المكتسب هو سلوك سلبي ينشأ من الإدراك بأنه لا وسيلة لتجنب آثار مؤلمة، ومن عدم اليقين بخصوص أي شيء، فهي حالة «إين بريرا» بامتياز.

وقد توصل العلماء إلى أن ظاهرة العجز المكتسب في المجتمع الإسرائيلي تنطوي على أخطار كثيرة مثل الشلل أو التطلع إلى حلول سحرية قد تحل كل المشاكل بضربة واحدة. وهذا الاتجاه الأخير أرض خصبة لتطور رغبة عارمة في ظهور مسيح دجال، والاستعداد لقبول من يقدم نفسه «كقائد قوي» يمكنه حل المشكلات كافة (وهذا يفسر ظهور شارون الذي وعدهم بإعادة الأمور إلى نصابها).

ومن أطرف المؤشرات على حالة الذعر التي انتابت التجمّع الصهيوني أنه، مع تصاعد الانتفاضة، بدأت حالة الذعر تنتاب الكلاب والقطط في المنازل الإسرائيلية، ولذا فقد اقتضى الأمر تقديم المهدئات لها (الفاليوم). وقال أطباء بيطريون إن الكلاب تبدأ في النباح وتصبح أكثر عدوانية وترتجف لا إرادياً أو تفقد التحكم في مثانتها عندما تصل أصداء دوي إطلاق النار في الضفة الغربية إلى مباني القدس.

وقال بيني سابير، وهو طبيب بيطري في القدس، اليوم فقط عالجت كلباً كان قد امتنع عن الطعام ويرفض مغادرة منزله. وقال طبيب بيطري آخر إنه لم ير مثل هذا العدد من الكلاب المضطربة منذ قام العراق وأمطر تل أبيب بصواريخ إسكود خلال حرب الخليج عام ١٩٩١. وقال طبيب ثالث إن كلبه هو شخصياً يرفض

الخروج من المنزل. إن الناس مصابة بالتوتر ولا يدرون ماذا يفعلون، الناس متوترة وكذلك حيواناتها(٢٦).

الالتفاف حول الالتفاف.

ويتبدى اهتزاز الخريطة الإدراكية في أوجه أخرى كثيرة، فمن المعروف أن الاستيطان هو جوهر الصهيونية وعمودها الفقري. وكما قالت صحيفة Israel's Business rena review(٢٧) الإسرائيلية إن حركة الاستيطان توجد في قلب الصهيونية ولا يوجد صهيونية بدون استيطان. وقد ردّد بن جوريون نفس الفكرة بعد إعلان الدولة، وكان الصهاينة يطلقون على المستوطن اليهودي كلمة «حالوتس»، أي رائد، لأن تصورهم أن هذا المستوطن كان يأتي لأرض بكر عذراء فيستولي عليها ويطهرها من سكانها ثم يحرثها ويزرعها ويحرسها بنفسه، ولذا فهو يمسك بالبندقية بيد والمحراث باليد الأخرى.

ولكن، مع تصاعد المقاومة واهتزاز الخريطة الإدراكية، تعيد قطاعات كثيرة من العدو الصهيوني حساباتها بخصوص الاستيطان في الضفة الغربية وغزة. ففي انتفاضة ١٩٨٧، انطلق السخط على الاستيطان المكيّف الهواء من عقاله، فوصف رابين المستوطنين بأنهم يشكلون عبئاً على المؤسسة العسكرية(٢٨). وقال أحدهم إن الاستيطان هو «الصنبور الذي لا يُغلق». وكتب يوسي سريد مقالاً وصف فيه المستوطنات بأنها ثقوب في الرأس وأنها «عبء»(٢٩). أما المهمة الدفاعية القتالية - وهي مهمة المستوطنات في المحل الأول في الأيديولوجية الصهيونية الكلاسيكية - فلا وجود لها، ومساهمة مستوطنات الضفة في الدفاع عن أمن إسرائيل «يشبه ما تفعله الجدة الخائفة»، أي البكاء والصياح. والأبراج في مستوطنات جوش إمونيم «هي برج طائر» مهتز تستطيع إصبع صغيرة أن تطيح به».

ووجود ٥٠ - ٦٠ ألف يهودي (عدد المستوطنين الصهاينة آنذاك) بين مليون ونصف مليون فلسطيني في الضفة والقطاع سيثير مشاكل عويصة للجيش، خاصة في حالة الحرب، كما حدث بالنسبة لمستوطنات الجولان في السبعينيات! إن هؤلاء المستوطنين ليسوا مصدر نفع للجيش الذي يضطلع بكل أو معظم الوظائف التي كان يضطلع بها المستوطنون قبل عام ١٩٤٨.

ومع توقيع اتفاقية أوسلو، عادت الخريطة الإدراكية إلى سابق عهدها الصهيوني وتراجع السخط على الاستيطان، واستمرت المؤسسة الصهيونية في التهام الأرض وفي تشييد المستوطنات، وصمتت معظم الأصوات المعارضة (وهذا تجلٍّ آخر لنمط التطرف والاعتدال الاستيطاني). ولكن، مع اندلاع انتفاضة الأقصى والاستقلال، عاد الحوار المسلح وعاد معه الهجوم على المستوطنات في الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ مرةً أخرى من قِبل المستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧. فبدأت الصحف الإسرائيلية تتحدث عن الاستيطان باعتباره «ورماً»(٣٠)، و«سرطاناً يأكل جسد المجتمع الإسرائيلي» (من خطاب سير جيو ياهني، المدير المساعد لمركز المعلومات البديلة، الذي صدر عليه حكم بالسجن إثر رفضه أداء الخدمة الاحتياطية بالجيش. وقد أرسل الخطاب بتاريخ ٢٠٠٢/٣/١٩). كما بدأت الصحف تتحدث عن المستوطنات باعتبارها «مصيدة الموت»(٣١)، و«مصنعاً للإرهاب»(٣٢).

وقد وصف أهارون مجيد تصاعُد السخط على الاستيطان في الضفة الغربية والقطاع بهذه الكلمات: «منذ أن توالت هذه العمليات [الفدائية] التي توقع الضحايا بالعشرات، لم يمض يوم ولا ساعة لم توجه فيها إدانات وانتقادات للمستوطنين، من على كل منصة ومن كل ميكروفون. دم القتلى في رقبتهم. كتّاب المقالات في

الصحف لا يضيّعون أية فرصة للتشهير بهم والبصق في وجوههم حتى حين يكتبون عن آخر فيلم شاهدوه أو عن معرض رسم. والمحللون الاقتصاديون أيضاً يعزون كل المشاكل التي ألمت بنا (تخفيض الفائدة، ارتفاع سعر الدولار، الفقر، البطالة، وغير ذلك) إلى المستوطنات التي تمص دم الدولة»(٣٣).

وكما قال سيرجيو ياهني في خطابه الذي أسلفنا الإشارة إليه: المستوطنات «حوّلت المجتمع الإسرائيلي في الـ ٥٢ سنة الماضية إلى منطقة خطرة... وجيش الدفاع الإسرائيلي ليس سوى جناح مسلح لحركة المستوطنات... موجود لضمان الاستمرار في نهب وسرقة الأراضي الفلسطينية».

أما عكيفا الدار ويشير إلى المستوطنين بأنهم «أقلية صغيرة لا تلعب أي دور حتى في محاولة تحقيق التوازن الديموجرافي مع العرب. فعدد المستوطنين، بالرغم من كل الامتيازات التي يحصلون عليها، يساوي (من حيث الحجم) نسبة التكاثر عند الفلسطينيين خلال عامين»(٣٤). كما أنهم مجرد مرتزقة جاءوا لتحقيق مستوى معيشي مرتفع «فأقل من ٣٠ ألف عائلة من أصل نحو مائة ألف عائلة في المستوطنات استقروا فيها لدوافع أيديولوجية». ويصف غي باخور المستوطنين في غزة بأنهم «أقلية هامشية: ثلاثة آلاف شخص يقيمون بين مليوني فلسطيني ويحتجزون نحو ثلث مساحة القطاع»(٣٥). أو كما قال أحد الكتّاب «لماذا يجب علينا أن ندفع كل هذا المال لحماية بضع عائلات إسرائيلية أسّست بيوتها وحقولها وسط الأراضي الفلسطينية؟»(٣٦).

وبعد تهميش المستوطنات، وبعد إظهار تكلفتها الاقتصادية، يتحدثون في الصحف الإسرائيلية عن ضرورة فكها. وقد جاء في نفس الجريدة(٣٧) أن من يريد أن يعيش في دولة ديمقراطية

يهودية عليه أن يذهب إلى أن الانسحاب من الأراضي المحتلة (بكثافتها السكانية العربية) أمر حتمي. ويخلص المقال إلى التأكيد بأن الاحتلال لا يقوض مقدرة دولة إسرائيل على حماية نفسها وحسب، ولا موقفها الأخلاقي أمام العالم فقط، وإنما يقسم المجتمع الإسرائيلي نفسه إلى قسمين.

وقد وجّه ابراهام يهوشع(٣٨) نداءً للمستوطنين بأن يتخلوا عن عنادهم وأن يعودوا إلى دولة إسرائيل «باعتبار أن الضفة الغربية والقطاع هي أرض فلسطينية. وقد كتب أحدهم خطاباً موجّهاً للمستوطنين يقول فيه: «لقد ذهبتم لتعيشوا في الأرض المحتلة. إن غور الأردن أرض محتلة. والآن تكابدون المتاعب، ولكنكم أنتم الذين سببتموه لأنفسكم... إن كنتم تريدون الأمن فلتهاجروا إلى إسرائيل. أنتم تعيشون الآن في الخارج. يجب أن تعرفوا أنكم مهاجرون، تماماً مثل الإسرائيليين الذين يعيشون في نيويورك»(٣٩). إن فكرة «إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات» أو حتى «إسرائيل من البحر إلى النهر»، وهي مكون أساسي في الخريطة الإدراكية الصهيونية، قد تلاشت تماماً.

وقد أدى كل هذا إلى تقويض الروح المعنوية في المستوطنات. وتعطينا إحدى المقالات النادرة التي نشرت صورة عن المستوطنات من الداخل(٤٠). بدأ المقال بشكوى أحد المستوطنين بأن الجمهور في إسرائيل لا يعرف ماذا يحدث في المستوطنات: الإحصاءات الرسمية تقول إن ٥١ أسرة قد تركت غور الأردن منذ بداية العام، لكن الرقم أعلى من ذلك بكثير. كما أن الإحصاءات لا تتضمن المستوطنين الذين يديرون حياتهم بالريموت كونترول (أي عن بُعد) وهم كثر، فهم ظاهرياً يعيشون في المستوطنات ولكنهم فعلياً يقضون معظم أوقاتهم خلف الخط الأخضر (أي فلسطين المحتلة

عام ١٩٤٨). ثم انهمرت الشكاوى.. قال أحد المستوطنين: «لقد سرت عدوى الرحيل في الوادي، ولا يبدو أنه يوجد أي علاج.. مستوطنة يافيت التي كانت تقطنها ٣٨ أسرة تركتها ثماني أسر.. ومستوطنة جلجال تركتها ٦ أسر من ٣٦ أسرة، أما ماسوا فقد تركتها ٥ أسر من ٣٥ أسرة، وجيتيت تركتها ٨ من ١٢، أما مستوطنة ناعران فلم يبق منها سوى ست أسر».

وقد ظهر في إسرائيل، منذ منتصف الثمانينيات، مصطلح dummy settlements، والتي نترجمها بعبارة «مستوطنات الأشباح»، أي المستوطنات التي تُشيَّد ولا يقطنها سوى بضع أسر. ومن الواضح أن المستوطنات ستزداد شبحية، فقد كانت هناك بعض الأسر المترددة في مستوطنة يافيت، ولكن بعد مقتل روهار شورجي، أحد سكان المستوطنة في ٢٠٠١/٨/٧، تركت زوجته وأولادها المستوطنة، ثم تبعهم آخرون. ولكن أسوأ ضربة كانت حين هاجر موسى هوفتمان وزوجته بريجيت، فهما من مؤسسي المستوطنة. وكانت الضربة من القوة بحيث أن المستوطنين لا يحبون الحديث عن هذا الموضوع.. ولكن حسبما سمع مراسل هآرتس من بعض المستوطنين، حينما عادت بريجيت من إجازة في فرنسا، وجدت أن الجو في المستوطنة مختلف تماماً عما كانت تعرفه.. صدمها كل شيء فجأة: الحزن من أجل شورجي.. رحيل بعض العائلات التي ساعدتهم على التأقلم والاستقرار.. الحزن المخيم على الجميع. حينئذ شعرت بريجيت هوفتمان أن أسلوب حياة الأسرة قد تساقط أمام عينيها فقررت الرحيل.

لقد ازدادت مستوطنات الأشباح شبحية، وازدادت جيتوية «لم يعد أحد يفكر في أن يقوم برحلة.. وإن سرت هنا بعد الظلام فلن تجد إنساناً، نصف المنازل مظلمة، عدد كبير من الأطفال لم يعودوا

بعد الإجازة الصيفية. مكان لعب الأطفال خالٍ تماماً. كل شيء توقف؟». يقول صاحب أحد المطاعم: «انظر كم نحن مشغولون الآن». ويشير ساخراً إلى درج النقود الفارغ. «سوء طالعنا أننا انتهينا من تجديد المطعم قبل أن تتاح لنا فرصة أن نذوق العسل [في أرض بلا شعب؟!] كم الساعة الآن؟ الرابعة؟ إن جلست هنا حتى السابعة، أي عندما أغلق المطعم، لن ترى أكثر من جندي أو جنديين يأتون إلى المطعم» [بدلاً من الأطفال وضحكاتهم يأتي الجنود وأسلحتهم.. أليس هذا هو مصير كل المستوطنين الذين اغتصبوا الأرض من أصحابها؟!].

وقد جاء في صحيفة معاريف أنه في ٤٥ مستوطنة (من بين ١٤٤ مستوطنة) في مجموعة مستوطنات يشع، سجل عام ٢٠٠١ عدد من المغادرين يفوق مجموع السكان الجدد والتكاثر الطبيعي. وينطبق نفس الوضع على المستوطنات القريبة من الخط الأخضر. وتحاول بيانات الحكومة الإسرائيلية التقليل من حدة الأزمة، حتى أصبحت أرقام النازحين عن المستوطنات من المحرمات لأن الكشف عنها يؤدي إلى تدهور معنويات الإسرائيليين.

ومن أهم تبديات اهتزاز الخريطة الإدراكية الصهيونية والثقة الصهيونية بالذات موقف مستوطني عام ١٩٤٨ من الطرق الالتفافية. ومن المعروف أن المستوطنين الصهاينة ادعوا أن فلسطين أرض بلا شعب، وأنهم جاءوا لاكتشافها ولإصلاحها، ولكنهم بدلاً من ذلك اكتشفوا أن فلسطين أرض ليست عامرة بسكانها وحسب، بل وإن سكانها هؤلاء مصممون على مقاومتهم وعلى الانتفاض ضدهم المرة تلو المرة، وأخيراً على خوض المعارك العسكرية ضدهم.

ويبدو أن ضغط الواقع على الإدراك الصهيوني اضطرهم إلى تعديل خريطتهم الإدراكية، فبدلاً من شعار «أرض بلا شعب»

أصبح شعارهم «أرض لشعب بوسعنا الاستيلاء عليها والاستيطان فيها دون رؤية أصحابها». ومن هنا كانت «الطرق الالتفافية»، وهي طرق تشقها الدولة الصهيونية لربط المستوطنات بعضها ببعض بعيداً عن المناطق السكنية العربية.

والعائد الاقتصادي من هذه الطرق الالتفافية ضعيف إن لم يكن منعدماً. وقد كتبت الصحف الإسرائيلية عن «الطريق الموسيقي»، وهو طريق التفافي شُيِّد خصيصاً لطفل في إحدى المستوطنات الصهيونية كان يريد أن يأخذ دروساً في عزف الكمان في مستوطنة أخرى، وبطبيعة الحال كان لا يريد أن يمر من القرى العربية، فشيّد له هذا الطريق الموسيقي خصيصاً. وقد نشرت جريدة معاريف[٤١] خبراً عن ذلك المستوطن الصهيوني الذي كان لا يريد السفر إلى عمله عبر الطريق الالتفافي والأكثر أمناً، لذلك وضع الجيش دبابة وعدة جنود ليرافقوه في ذهابه وإيابه، وتمر هذه القافلة عبر قرى عربية مزدحمة بالسكان، وكل ذلك من أجل أن يصل الشخص بسلام إلى عمله، من خلال الطريق الذي يعجبه دون أن يتحدى أحد خريطته الإدراكية!

ولكن انتفاضة الأقصى فضحت أكاذيب الصهاينة وبدّدت أوهامهم. فالشعب الذي غُيِّب من خلال الطرق الالتفافية، عاود الظهور على شاشة الوعي الصهيوني. وإذا كان قد ظهر عام ١٩٨٧ وهو يحمل حجراً، فإنه يظهر هذه المرة وهو أكثر عزماً وإصراراً ويحمل مدافع الهاون وصواريخ الأقصى والقسام المصنوعة محلياً. وهم لا ينوون مضايقة المستعمر وحسب، وإنما ينوون طرده، ولذا فهم يهاجمون مستوطناته وطرقه الالتفافية ويرسلون رسائل مسلحة إلى المستوطنين مفادها أن عليهم الرحيل عن أرض الفلسطينيين.

وقد علّق زئيف شيف على السرعة الهستيرية التي تشيّد بها

الطرق الالتفافية في زمن الانتفاضة والحرب، فطرح ثلاثة احتمالات تفسّر سلوك حكومة شارون: الأول هو أن هذه النفقات تعبّر عن النية في عدم إخلاء الضفة الغربية أبداً، والباقي كله نوع من ذر الرماد في العيون!! والاحتمال الثاني هو أنهم قرروا تشييد شبكة طرق للدولة الفلسطينية التي ستقوم في الضفة الغربية، على أن يقوم دافع الضرائب الإسرائيلي بتمويلها! والاحتمال الثالث هو أن السلطة في إسرائيل تملكها الشيطان دون أن يستطيع أحد وقف مسيرة السخافة.. وتصل السخافة إلى درجة الكوميديا حين تعرف أن الحكومة الصهيونية تنشئ طرقاً التفافية حول الطرق الالتفافية. ولا شك أن المستوطنين أدركوا دلالة الالتفاف حول الالتفاف تماماً مثلما أدركوا تزايد شبحية مستوطنات الأشباح.

رفض الخدمة العسكرية والنزوح.

ويتضح تساقط الخريطة الإدراكية الصهيونية أيضاً في ظاهرة رفض الخدمة العسكرية والفرار منها، وهي ظاهرة جديدة/قديمة في المجتمع الإسرائيلي. قديمة من ناحية أن التجمّع الصهيوني عرفها من قبل عدة مرات كان آخرها أثناء احتلال جنوب لبنان. وهي جديدة من ناحية أنها ظهرت مرةً أخرى استجابة لتصاعد المقاومة الفلسطينية في الانتفاضة الحالية. ويبدو أن التربة كانت خصبة ومهيأة لعودة هذه الظاهرة. لقد تصاعدت معدلات العلمنة والأمركة والتوجه نحو اللذة، وهي اتجاهات تنامت في إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ وأدت إلى تحوّل التجمّع الصهيوني إلى مجتمع الثلاثة في (الفيديو والفولفو والفيلا)، وإلى ظهور «الروش قطان»، أي المستوطن المتوجه نحو اللذة ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة، الذي يجيد الاستهلاك ولا

يؤمن بأية مثاليات أو أيديولوجيات، بما في ذلك الأيديولوجية الصهيونية. مثل هذا المواطن لا يعرف كيف يضحي من أجل وطنه وكرامته، فهو ملتف حول ذاته، خريطته الإدراكية متمركزة حول معدلات استهلاكه ورفاهيته، وهو بالتالي ينصرف عن الخدمة العسكرية ويفر منها.

ومن المعروف أن شارون طرح برنامج الحد الأقصى الصهيوني الذي يلتزم بعدم التنازل عن غور الأردن أو إزالة المستوطنات أو تقسيم القدس أو عودة اللاجئين(٤٢). ثم بدأ بعد ذلك يتحدث عن بعث الروح القديمة: روح التقشف وتحمل المشقات التي تسم الرواد الصهاينة. وقال إنه سيقود الإسرائيليين في حرب بحيث يمكنهم دخول معركة تمتد لعدة سنين بل وربما عشرات السنين يردون فيها الصاع صاعين للفلسطينيين.

ولكن شارون (كما يلاحظ جاكسون دايل في الواشنطن بوست(٤٣) من القادة الإسرائيليين الذين فشلوا في إدراك أن عقلية الكيبوتس القديمة قد ولّت وذهبت، وأنه حل محلها مجتمع علماني مترف، مجتمع «الهاي تك» الذي لن يقبل سنوات طويلة من الهجمات الانتحارية دون وجود أمل في تسوية دائمة. وهذا ما لاحظه أيضاً إتيان هابر، فهو يشير في مقال له إلى أن «جيش الحفاة في فيتنام الشمالية قد هزم الأمريكيين المسلحين بأحدث الوسائل القتالية... ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار.. الروح تعني المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر»(٤٤). «وهي الروح التي ميزت إسرائيل... ومكنتها من القتال من أجل حياتها... وهي أيضاً الروح التي ابتعدت عنها هذه الأيام».

هذا التوجه نحو اللذة يجعل من الخدمة العسكرية عبئاً لا

يُطاق. ولذا، حينما اندلعت انتفاضة الأقصى، ظهرت حركة «الشجاعة في الرفض» (أي رفض الخدمة العسكرية) التي أصدرت بياناً جاء فيه أن الموقعين عليه «صهاينة مخلصون»، وأنهم كانوا من الأوائل في الدفاع عن إسرائيل، إلا أن الأوامر التي يتلقونها الآن لا تمت لأمن الدولة بأية صلة، أي أنهم يرفضون التصور الصهيوني للأمن الإسرائيلي الذي يمتد من النهر إلى البحر، والذي يضم كامل تراب فلسطين. ومن ثمّ، فإن الجيش الإسرائيلي في الضفة هو، بالنسبة لهم، جيش احتلال لأن «الضفة الغربية ليست إسرائيل». ولذا فهم يعلنون أنهم لن «يشتركوا فيما يسمونه حرب أمن المستوطنات»، وأنهم لن يواصلوا «القتل خلف الخط الأخضر بهدف السيطرة والطرد والهدم والإغلاق والتصفية والتجويع والإهانة لشعب بأكمله»(٤٥).

وقد عقدت مجلة نيوزويك(٤٦) مقارنة بين ما يحدث في إسرائيل وما حدث في جنوب إفريقيا. فقد رفض الجنود أن يخدموا في مدن السود، فاستجابت الحكومة في البداية استجابة عنيفة. ومع تصاعد مقاومة السود، ازدادت حاجة الحكومة لجنود بيض. فتزايد عدد الجنود البيض المعترضين، فحاولت الحكومة أن تخفف من حركة المقاومة بطرح أشكال بديلة للخدمة العسكرية. وفي نهاية الأمر، اقتنعت الحكومة بعدم جدوى سياسة التفرقة اللونية وتفاوضت مع ثوار جنوب إفريقيا السود.

إن خريطة المجندين الإدراكية بدأت تهتز وتتغير بسبب تكرار الحروب خارج حدود إسرائيل وبسبب الهزائم التي لحقت بهم مما يجعلهم يشعرون أن الحروب الصهيونية ليست حتمية مفروضة عليهم وإنما هي حروب توسعية تتم بمحض اختيار المؤسسة العسكرية. كما أن الإطار الأيديولوجي الصهيوني قد أخذ في

التآكل ولم تعد الصهيونية هي الرؤية التي تفسر للمستوطنين الصهاينة حاضرهم (وماضيهم ومستقبلهم) وإنما أصبحت عبئاً يطرح عليهم حلماً مستحيلاً، وهو حلم الاستيلاء على أرض الغير والاستقرار فيها دون قتال أو منغصات.

وقد أصبحت الخدمة في الجيش بالنسبة للكثير من الإسرائيليين عبئاً اقتصادياً كبيراً إذ يُفصل كثير من المجندين من أعمالهم بعد أدائهم خدمة الاحتياط، في الوقت الذي يُعفى فيه طلبة المدارس الدينية من الخدمة العسكرية وتغدق عليهم المعونات ليستأنفوا دراستهم.

ولقد بدأ المجندون يشعرون بأنه لا جدوى من الاستمرار في الحرب. قال المعلّق الإسرائيلي يوئيل ماركوس «نحن نستخدم الطائرات من طراز (أف ١٦) فوق غزة، ونسقط قنابل زنتها طن (وهو ما يعادل ٤ صواريخ سكود العراقية)[٤٧]، ويطرح قائد القوات شعار: كل صدام مع الفلسطينيين لا بد أن ينتهي بانتصار إسرائيلي. ومن الواضح أنه فشل تماماً في تنفيذ شعاره هذا فرغم أن الجيش الإسرائيلي واحد من أقوى جيوش العالم، إلا أن سرعة الحركة لم تعد في صالحنا. فالعمليات العسكرية السريعة لم تعد حكراً علينا، إذ تعلّم الفلسطينيون مفاجأتنا بعمليات رفيعة المستوى (كما يقول التليفزيون الإسرائيلي). فبينما نحن نعد القنابل، يرشنا إرهابي في أحد مراكز التسوق بمدفعه. إن سلاح الفلسطينيين السري هو «التفجير الانتحاري»، كما أن التطوع للقيام بالعمليات الانتحارية لم يعد مقصوراً على المتعصبين الدينيين، فالاستشهاديون [هكذا في الأصل] يأتون الآن من صفوف فتح».

ومن أهم أسباب رفض الخدمة العسكرية، إدراك الجنود لمدى وحشية القمع الصهيوني للفلسطينيين. وقد ذكرنا من قبل أن المؤسسة

العسكرية الإسرائيلية نجحت في إقناع المجندين أنهم يدافعون عن وجودهم الفردي والقومي، وأنهم يدخلون في حروب دفاعية متتالية بسبب لاعقلانية العرب وشراستهم. لكن الرؤى الأيديولوجية عادة ما تولد خريطة إدراكية تكتسب استقلالاً عمن يصوغها بحيث يصبح لها منطقها الخاص وتؤدي إلى نتائج غير مقصودة. وهذا ما حدث في هذه الحالة، فجنود الاحتياط الذين غُسلت أمخاخهم بهذه الاعتذاريات الصهيونية الأخلاقية المصقولة، استقوا منها معايير للحكم على ما حولهم. وحينما أرسلوا إلى الضفة الغربية قاموا بالحكم على أفعالهم وعلى قياداتهم بهذه المعايير.

وقد قال أحد الجنود: «تربينا على أن نكون ضباطاً أنقياء كالبللور، وحولونا إلى غزاة فاشيين يريقون الدماء ويرتكبون جرائم الحرب»(٤٨) . وقال ثان: «لا أسمح لنفسي بأن أقمع جمهوراً من الجوعى. لقد دربوني في الجيش على القتال، ولست مستعداً لأن أواجه أطفالاً ونساء وشيوخاً بالسلاح»(٤٩). ومهما يكن الأمر، كان هناك دائماً الادعاءات الأخلاقية، التي ربما يكون قد صدقها بعض الجنود، ولكنهم حينما زج بهم في الضفة الغربية، أدركوا طبيعة الحرب التي دخلوها وحكموا عليها من منظور الادعاءات الأخلاقية الصهيونية.

ولا أدري مدى صحة أقوال هؤلاء الجنود.. فهل تم فعلاً غرس قيم قتالية سامية فيهم مثل طهر السلاح؟! من خلال قراءتي للصحف الإسرائيلية تظهر في الواقع صورة مغايرة تماماً ففي مقال له نُشر، يشير أمير أورين إلى أن أحد الضباط نصح المتدربين أن يستعدوا للحرب في المدن الفلسطينية بأن يتعلموا كيف نجح النازيون في إضعاف جيتو وارسو (الذي وُضع فيه معظم أعضاء الجماعة اليهودية) وفي تدميره في نهاية الأمر(٥٠).

وفي مثل آخر: حاول أحد مندوبي سلاح المشاة أن يقنع طلبة الصف الثاني في المدرسة الثانوية في القدس أن ينضموا لوحدته، فوعدهم بأن من ينضم إلى الوحدة سيمكنه أن يأخذ صوراً مع جثث (حقيقية)»[٥١].

وقد أشار رامي كفلين[٥٢] إلى تأثير الإيديولوجية التي تُشاع في الجيش الإسرائيلي والتي «تبين أن العرب أعداء سفلة غرباء ومتآمرون».. فهي أيديولوجية «تنزع عن العرب الإنسانية» و«تنمي التعطش إلى الدم.. الغريزة الدفينة في الإنسان حين تتوفر له المقدرة على الفساد».

وقال أحدهم: «نحن نقوم بحماية حفنة من المستوطنين الموتورين الذين يستخدمون الجيش لأغراضهم الذاتية في الربح المالي أو الديني، ونحن علينا أن نساندهم ونرضيهم، ومن أجلهم نسلب حقوق الشعب الفلسطيني ونصبح جيش احتلال بشعاً بدلاً من أن نكون جيش دفاع»[٥٣]. وعلى حد قول أحد الرافضين «إن كنت محتلاً، فإنك لا يمكن أن تتسم بالرحمة، فالقسوة هي الشيمة الحتمية للمحتل»[٥٤].

وكما سبق القول، فإن اهتزاز الخريطة الإدراكية يتضح في ظاهرة النزوح. ولعل هذا المقال الطريف يصلح مدخلاً جيداً لفهم استجابة العقل الإسرائيلي للانتفاضة: «إنه بسبب تردي الوضع الأمني والانكماش الاقتصادي، بدأ الإسرائيليون يبحثون عن مصادر للأمان فيما وراء البحار: جوازات سفر، تأشيرات عمل - عقارات. لهذا السبب، وجد الصحفي بن تسيون تسيترين نفسه مطلوباً أكثر من أي وقت آخر لأنه ألف كتاباً بعنوان كل الطرق تؤدي للحصول على جواز سفر آخر. وقد لاحظ تسيترين أن الكتاب الذي صدر منذ ١٥ عاماً كان يحقق مبيعات كبيرة إلى أن تم توقيع اتفاقية أوسلو

«فالناس لم تعد تفكر في الرحيل، ولم يعد الكتاب يُباع. ولكن، منذ اندلاع الانتفاضة الثانية، وأنا أتلقى عشرات المكالمات الهاتفية».

ولكن ما الذي يدفع المستوطنين الإسرائيليين إلى التفكير في الهروب؟ تقول المقالة: إن الباحثين عن جواز سفر جديد يكابدون إحساساً بالفزع والخوف والهستريا والإحساس بالعجز والقلق، ويرون أنه لا أمل في التوصل إلى اتفاقية سلام. إنهم يخافون من اندلاع حرب شاملة ومن صواريخ الكاتيوشا فوق رؤوسهم، ولا يريدون العيش في ملاجئ ولا يريدون تعريض أطفالهم للخطر ويخافون على مصير أولادهم.

وقد جاء في صحيفة يديعوت أحرونوت(٥٥) أن الإسرائيليين بدأوا يهرولون باتجاه أمريكا مرةً ثانية، ولكنهم هذه المرة يهرولون أكثر من ذي قبل. فقد شرع قسم الهجرة التابع لحكومة الولايات المتحدة في منتصف شهر مارس ٢٠٠١ في حملة السحب السنوية على «الجرين كارد»، تلك التأشيرة التي تسمح لصاحبها بالإقامة والعمل في الولايات المتحدة بصورة شرعية. وقد صرح مسؤول في أحد المكاتب الكبرى المعنية بهذا الموضوع في أتلانتا بأن عدد الإسرائيليين الذين قدموا - عن طريق المكتب - طلبات الاشتراك في عملية السحب حتى الآن للحصول على «الجرين كارد» أكبر عشرات المرات من عدد الذين سجلوا أسماءهم في عملية السحب خلال نفس الفترة من العام الماضي.

وفي مقال ساخر بقلم «موتي باسوك» في إسرائيل(٥٦) يقول الكاتب إن إسرائيل تنضم للاتحاد الأوربي لا كأمة وإنما كأفراد - الواحد تلو الآخر - وقد أطلق الكاتب طرفته هذه بعد أن تزايد عدد الإسرائيليين الذين طلبوا جوازات سفر أوربية.

ويُلاحظ أن كثيراً من النازحين هم من أبناء الطبقة

المتوسطة الإشكنازية ذوي الأصول الغربية الذين يشكلون العمود الفقري للتجمّع الصهيوني (ومما يساعد على ذلك أن العولمة تفتح الفرص أمامهم في العالم الغربي لما لديهم من خبرات واتصالات). كما أن من بين النازحين عدداً كبيراً من أعضاء الكيبوتسات وكبار الضباط والطيارين والمهندسين في صناعة السلاح. فهؤلاء يتعلمون اللغات بسرعة، وبوسعهم التكيُّف مع بيئتهم الجديدة، فالإسرائيليون مهاجرون بطبيعتهم»(٥٧). وهؤلاء المستوطنون عندهم من المدخرات ما يسمح لهم بأن يودعوا مبالغ طائلة في البنوك في الخارج... كملاذ من يوم بارد، كما يقول أمنون دنكر(٥٨).

وحالة المستوطن الإسرائيلي عاموس ساهر، الذي يعمل كمرشد سياحي والبالغ من العمر ٣٥ عاماً، تستحق الدراسة، فقد قرر الرحيل هو وزوجته وابنه الصغير بعد أن يجد مشترياً لشقته. يقول ساهر: «لم يكن الأمر هيناً.. لقد استغرقتني أعوام من الانفجار وأعمال القتل، من الأحزان والآمال، من المجادلات والقلق، لكنني تداعيت في النهاية. سئمنا أن نجدهم في كل مرة نفتح فيه المذياع يتحدثون عن انفجارات، عن دماء، عن موت، عن جنائز. هذا هو الواقع بصراحة. ولست فخوراً بذلك، ولا أعتبر هذا شعاراً لي ولكن من المستحيل أن تقولوا لنا عليكم أن تبقوا هنا ما دام من المستحيل أن تضمنوا لنا حياتنا. إنني أريد أن أمنح أسرتي أقصى قدر ممكن من السعادة».

ويضيف ساهر: «الجميع الآن يعتقدون أنه لا مجال نتقدم نحوه، فليس هناك ما نتقدم نحوه. المشكلة هي أننا على مدى السنوات الثلاث والخمسين الماضية لم ننجح في ضمان أمننا. هذا هو سبب الرحيل. نحن نشعر بعدم وجود مخرج... الحل هو الرحيل وليس تغيير السلطة. من الصعب عليّ أن أقول هذا، ولكننا

في إسرائيل نعيش كما لو كنا مسحورين. نخرج إلى الشوارع ومن الممكن أن يحدث أي شيء وينسفنا ويحولنا إلى أشلاء. أنا لا أرى أملاً في حدوث تغيير كبير. وإحساسي يقول [ليس فقط الإحساس ولكنه التحليل العقلاني] إنه لا سبيل لضمان حياة الناس هنا. أعلم أن هناك أماكن لا تحدث بها مثل هذه الأمور حقاً. لا توجد أماكن محصنة من الموت ولا أماكن ليس بها مجانين، ولكن هناك أماكن يمكنك أن تصحو فيها في الصباح وتفتح عينيك وتحتسي فنجان القهوة وتخرج وتقول للناس صباح الخير. وأهم شيء هو أن تصل إلى موقع عملك في الموعد المحدد. أنا ببساطة أشعر بالقلق على طفلي الرضيع..!. ويبدو أن من سيحاولون إقناعي أن أبقى يفضلون أن أموت هنا على أن أعيش في مكان آخر. أما أنا شخصياً فأنا أفضل الحياة ولا أخجل من ذلك».

وقد نشر ساهر موقفه هذا على شبكة الإنترنت(٥٩). وأن التعليقات على موقفه تعكس الحالة المعنوية لدى الجماهير. فقد هاجمته الأغلبية، ولكن كانت هناك أقلية واجهت نفسها، فالمستوطن يوني من مستوطنة رحوفوت قال: «أخيراً.. لقد قال أحدنا وفعل ما ترغب الأغلبية في قوله وفعله، ولكنها تخاف أن تقوله وتفعله».

وقد سُئل ساهر عما إذا كان سيفتقد أصدقاءه والطبيعة الجميلة واللغة، فكان رده رد مستوطن حقيقي، مهاجر دائم لا جذور له، قال: «يمكنني أن أحب الطبيعة في مكان آخر.. إن كل ما أكلناه هنا منذ لحظة ولادتنا.. ليس أعمق جذوراً مما هو موجود في أماكن أخرى. إنني لا أفهم كيف يمكن أن أحب إسرائيل والنار تطلق عليّ في كل مكان». إن ساهر لا يبحث إلا عن متعته وخلاصه الفردي، ولذا فوطنه هو مصلحته، أو كما يقول: «إسرائيل تمثل بالنسبة لنا إمكانية واحدة من بين العديد من

الإمكانيات في العالم». وهو لا يختلف في ذلك عن كثير من المستوطنين الصهاينة، خاصة المهاجرين الجدد من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) الذين وصفهم أحدهم بأنهم يجلسون على حقائبهم، أي أنهم يستوطنون في إسرائيل بشكل مؤقت حتى يجدوا فرصاً أحسن للحراك الاقتصادي والاجتماعي. ولذا، حينما سأله مندوب هآرتس إذا كان سيضايقه الشعور بالرضا الذي سينتاب أعداء إسرائيل بعد سماع كلامه هذا، أجاب بأنه «ليس مسؤولاً عن الروح المعنوية في إسرائيل... لست في حاجة لتصور ما يفكر فيه حسن نصر الله عندما يقرأ عن مرشد الرحلات عاموس ساهر.. حسن نصر الله ليس في حاجة لعاموس.. عاموس [ببساطة شديدة] لا يريد أن يقف بسيارته في اختناق مروري فيتعرض للنسف». ويضيف: «لقد شاهدت أناساً يعيشون بهذه الطريقة. إنني أبحث عن مكان صغير وهادئ لدرجة الملل. مكان يترك فيه الناس أبواب منازلهم مفتوحة وهم بخارجها، أنا أعرف أن هذا موجود».

إن ما يشعر به المرشد السياحي والمستوطن الصهيوني عاموس ساهر هو ولا شك شعور معظم المستوطنين الصهاينة، بعضهم عنده الجرأة لأن يفصح عن شعوره ورغبته الدفينة، والبعض الآخر لا يجترئ على مواجهة ذاته. ولكن هل سيستمر الوضع على ما هو عليه؟

ويجب أن نشير إلى نزوح سكان المستوطنات عنها، إلى ما وراء الخط الفاصل بين فلسطين التي احتُلت عام ١٩٦٧ وتلك التي احتُلت قبلها، باعتباره شكلاً من أشكال النزوح. وقد ورد في صحيفة يديعوت أحرونوت(٦٠) .أن عدد الإسرائيليين الذين أمضوا عيد الفصح خارج إسرائيل كان حوالي ٢٠٠ ألف إسرائيلي، وأن كل هذا بسبب الوضع الأمني ويمكن اعتباره نزوحاً مؤقتاً.

نهاية إسرائيل.

يوري أفنيري، عضو الكنيست السابق، من أوائل المستوطنين الصهاينة الذين أدركوا أن المشروع الصهيوني لا يمكن تحقيقه، ولذا فقد كان كتاب إسرائيل بدون صهيونية من مؤلفاته الأولى. وقد نشر أفنيري مقالاً بعنوان «الضربة القاضية لم تُسدد بعد»(٦١) يقدم فيه تقييماً كلياً للمواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ويعطينا صورة دقيقة للخريطة الإدراكية الصهيونية وتحول الإدراك الصهيوني للمقاومة الفلسطينية. يقول أفنيري: «يدخل ملاكمان الحلقة: واحد منهما بطل الوزن الثقيل، والآخر وزن الريشة. ويتوقع الجميع أن يقوم البطل بتسديد ضربة قاضية تقضي على غريمه الهزيل في الجولة الأولى... ولكن، ويا للعجب، تنتهي الجولة الأولى والضربة القاضية لم تُسدَّد بعد، وفي الجولة الثانية يستمر نفس الوضع. وبعد الجولتين الثالثة والرابعة، لا يزال وزن الريشة واقفاً، مما يعني أنه هو الرابح الحقيقي، لا بالضربة القاضية ولا بالنقط، وإنما لمجرد أنه لا يزال واقفاً ومستمراً في الصراع مع غريمه القوي».

هذه الصورة المجازية تنطبق تمام الانطباق على المواجهة بين قوى الاحتلال الإسرائيلي والشعب الفلسطيني. فالجيش الإسرائيلي القوي لم ينجح حتى الآن في تحطيم العمود الفقري للانتفاضة. لقد جرّب هذا الجيش كل شيء: البنادق والطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة والتصفية الجسدية وتحطيم أحياء بأسرها والحصار وتحطيم المنازل وقطع الأشجار، ومع هذا فإن الفلسطينيين لا يزالون حتى الشهر السابع واقفين يصارعون غريمهم.

وإرادة الشعب الفلسطيني لم يتم كسرها رغم كل الضربات القاسية التي سُدِّدت إليهم، وقد أثار هذا دهشة الجنرالات

والمعلقين الإسرائيليين جميعاً. وتحطّم اقتصاد الفلسطينيين، وأصبحت حياتهم جحيماً، ومع هذا يؤيد الجمهور الفلسطيني الاستمرار في الكفاح. وقد وصف أحدهم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بأنه «صدام بين قوة لا يمكن مقاومتها، وشيء لا يمكن تحريكه». لقد أصبحت الانتفاضة حرب استنزاف. في مثل هذه الحرب، بين قوة الاحتلال والمحتلين، نجد أن روح المحتلين المعنوية عالية لأنهم يدافعون عن وجودهم ذاته و«في الحرب»، كما يقول نابليون، «تشكّل الاعتبارات المعنوية الثلاثة أرباع، أما توازن القوى فيشكّل الرابع الباقي».

كتب أفنيري هذا في الشهر السابع من الانتفاضة، فما بالكم بالسنة التالية! وما بالكم بأصداء صاروخ قسام ٢ محليّ الصنع، الذي يصل إلى العمق الإسرائيلي، والذي كتبت عنه الصحف العربية في البداية وكأنه خبر عادي، وكأنه لا يتضمن تغيّراً نوعياً في المواجهة بين جيش الاحتلال والمقاومة الفلسطينية، في الوقت الذي وصف فيه جدعون سامت الصاروخ بأنه «ليس نجاحاً للانتفاضة الثانية وحسب، بل هو أيضاً إخفاق محتم وصارخ لجهود الردع الإسرائيلية»(٦٢). وقال تالي شاحك «التقديرات الأمنية والأنباء التي توقف شعر الرأس بشأن(٦٣) الصواريخ الموجهة في هذه اللحظات نحو مستوطنات خط التماس أو مراكز المدن، وكذلك العمليات المعقدة والمواد الناسفة التي لم يشهد لها مثيل، تغذي الخوف في قلوبنا».

لقد كان اسم عز الدين القسام محفوراً في الذاكرة وفي الخريطة الإدراكية الفلسطينية والعربية والإسلامية رمزاً للمقاومة والاستشهاد، وها هو ذا يتحول إلى حقيقة مادية، وهكذا حوّل المنتفضون الحلم العربي إلى حقيقة، وهكذا تُفعَّل الهوية والذاكرة

لتحوّل المستوطنات إلى أطلال بدلاً من البكاء التقليدي عليها. ثم جاءت المفاجأة الأخيرة: تفجير دبابة «مركبا ٣» الإسرائيلية، وهي من أحدث أنواع الدبابات وأكثرها تحصيناً. كان الانفجار من القوة بحيث انقلبت الدبابة على جانبها. ويبدو أن المنتفضين الذين خططوا للعملية بدقة، استخدموا مائة كيلو جرام من المتفجرات. وتعدّ هذه العملية تصعيداً جديداً، لم يتوقعه الإسرائيليون الذين كانوا يتحدثون عن «جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يُقهر».

وانتفاضة الأقصى هي جزء من الحوار المسلح الذي انخرط فيه المنتفضون الفلسطينيون مع المستوطنين الصهاينة. ولعل من أهم ثمرات هذا الحوار أن المستوطنين الصهاينة بدأوا يدركون الانتفاضة لا باعتبارها إرهاباً (كما يدّعي زعماؤهم أو كما يدّعي جورج بوش وأعوانه) وإنما باعتبارها حرب تحرير وحركة مقاومة.

ويقول زئيف شيف، أهم معلق عسكري في إسرائيل، في وضوح كامل: إن العمليات الفدائية الفلسطينية تنتمي إلى حرب العصابات وليس للإرهاب(٦٤) [ولعل هذا القول يذكّرنا بكلمات بن جوريون وشاريت التي وردت في الفصل الثاني]. أما يوئيل ماركوس فيشير في مقال له إلى فشل إسرائيل في القضاء على ما أسماه «الإرهاب القومي»(٦٥) بالقوة. ومن الواضح أن الكاتب يخاف من الحديث عن الانتفاضة باعتبارها مقاومة مشروعة، ولذا فإنه يتخفى وراء عبارة «الإرهاب القومي»، إلا أنه يعني، في واقع الأمر، «المقاومة الشعبية» أو «حرب التحرير». ومما يدعّم هذا الرأي أنه هو نفسه يقول إن فشل إسرائيل ليس فريداً «ففي القرن العشرين، لم تنجح دولة في العالم في القضاء على الإرهاب القومي». وهو بذلك يستدعي، إلى عقل المستوطنين الصهاينة تاريخ حركات المقاومة في كل من إفريقيا وآسيا، وهي الحركات التي نجحت في

هزيمة الجيوش الاستعمارية وتصفية الجيوب الاستيطانية سواء في الجزائر أم جنوب إفريقيا أو في غيرهما.

ويتساءل أبراهام يهوشع فيقول: «هل بإمكانكم أن تأتوا بمثال واحد من التاريخ نجح فيه شعب في السيطرة على شعب آخر لفترة طويلة؟ هل تعرفون مكاناً واحداً في العالم يعيش فيه بشر دون حقوق إنسان مثل الفلسطينيين؟»(٦٦).

إن ما يُسمى «الإرهاب» ليس إرهاباً، بل هو حرب تحرير، لأن الفلسطينيين ليسوا مجرد مجموعة متناثرة من المحاربين، بل هم شعب بأسره له تاريخه ومؤسساته الحضارية. وهذا ما يبيِّنه مايكل بن مائير(٦٧)، إذ يقول: «إن الانتفاضة هي حرب التحرير التي يخوضها الشعب الفلسطيني. فالتاريخ يعلمنا أنه لا توجد أمة على استعداد لأن تعيش تحت هيمنة شعب آخر، وأن حرب التحرير التي يخوضها شعب مضطهد ستنجح حتماً».

أما جرشون باسكين، المدير العام المشارك للمنظمة الإسرائيلية - الفلسطينية للبحوث والمعلومات، فقد كتب يقول: «إن الفلسطينيين يعرفون أن قوتهم العسكرية أقل أضعاف المرات من القوة الإسرائيلية وأنه لا توجد أمامهم أية إمكانية للفوز في أرض المعركة، ولكنهم يؤمنون من الناحية الأخرى بتفوقهم السياسي والأخلاقي، واعتقادهم أن العدل والتاريخ يقفان إلى جانبهم. وهم يقولون إن إسرائيل هي المحتل الأخير المتبقي في العالم وإن أحداً لا يستطيع أن يوقف نصرهم في حرب التحرير التي يخوضونها ضد الاحتلال الأجنبي. وهم يعتقدون أيضاً أن اتباع تاكتيك مثل حزب الله سيحقق غاياتهم وأن الخسائر الفادحة التي تلحقها إسرائيل بهم تعزز من معنوياتهم وتشكل الفصل الأهم في الرواية الفلسطينية. واستناداً إلى تجربة أوسلو الفاشلة، فهم يعتقدون أنهم

لن يمكنهم أن ينتزعوا من إسرائيل انسحاباً كاملاً من المناطق المحتلة من خلال المفاوضات السياسية، وهم مقتنعون أنهم سيحققون ذلك في نهاية المطاف من خلال الكفاح الذي يخوضونه الآن» [أي من خلال حرب التحرير الفلسطينية].

ولأنها حركة تحرير، فإن حملة شارون الأخيرة للقضاء على الانتفاضة، وعلى ما يسمونه البنية التحتية للإرهاب، محكوم عليها بالفشل، فهي «إعلان حرب على الشعب الفلسطيني كله»، فالبنية التحتية المشار إليها «قد تكون بعض الورش والمباني وبضع عشرات من القيادات والمخازن وعشرات الآلاف من الأشخاص الحاملين للسلاح، ولكنها أيضاً المجموعة السكانية الفلسطينية التي تعيش في الضفة والقطاع والتي توفر الدعم الأخلاقي والحقيقي للمخربين، باسم هذه المجموعة يهاجمون إسرائيل وإليها يعودون للحصول على مخبأ لهم، ولذا فإن إسرائيل لن تستطيع مطاردة كل واحد من آلاف المخربين الفلسطينيين»(٦٨).

وقد أدت ظواهر مثل تزايد النزوح من المستوطن الصهيوني، وتزايد الهجرة منه، والمطالبة بفك المستوطنات، والتفكير في تغليف [أي تقسيم] القدس، وتدهور الحالة الاقتصادية والإحساس بالعجز الأمني، وإدراك الانتفاضة باعتبارها حرب تحرير، أدى كل ذلك إلى طرح موضوع بقاء الجيب الاستيطاني الصهيوني على شاشة الوعي الصهيوني، وهو موضوع لا يحب أحد في إسرائيل مناقشته لأسباب مفهومة، ولكنه يُطل برأسه في الأزمات. ففي أثناء انتفاضة ١٩٨٧، حين بدأ الإجماع الصهيوني بخصوص الاستيطان يتساقط، حذر إسرائيل هاريل، المتحدث باسم المستوطنين، من أنه إذا حدث تقهقر ما من جانب إسرائيل [أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل]، فإن الأمر لن يتوقف عند الخط الأخضر [حدود ١٩٤٨]

إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يتهدَّد وجود الدولة ذاتها(٦٩). وهو تحذير قد يكون فيه قدر من المبالغة، ولكنه يحتوي أيضاً على قدر كبير من الحقيقة، ففي الحروب القومية (كما يقول إسرائيل هاريل نفسه) تلعب الروح المعنوية [أو الجهادية] الدور الأساسي.. وروح الإسرائيليين المعنوية في حالة تراجع - فهل ستصدق نبوءة هذا المتحدث الصهيوني؟

ولا يهم إن كانت النبوءة ستتحقق في المستقبل البعيد أو القريب، فما يهمنا من ناحية دراسة أثر الانتفاضة على الإدراك الصهيوني وعلى المستوطنين الصهاينة، أن نبيّن أن موضوع نهاية إسرائيل مطروح الآن على قائمة الاهتمامات الفكرية والوجدانية الصهيونية. انظر على سبيل المثال، إلى يديعوت أحرونوت(٧٠) التي ظهر فيها مقال بعنوان «يشترون شققاً في الخارج تحسباً لليوم الأسود».. واليوم الأسود هو اليوم الذي لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه. ويظهر نفس الموضوع في مقال ياعيل باز ميلماد(٧١) الذي يبدأ بالعبارة التالية: «أحاول دائماً أن أبعد عني هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟ انطلاقاً من النقطة الزمنية الحالية، ما زالت هذه الفكرة مدحوضة، ولكن ثمة الكثير جداً من أوجه الشبه بين المجريات التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت وبين ما يجري في الآونة الأخيرة مع الدولة».

بل إن المستوطنين أنفسهم أصبحوا يستخدمون نفس العبارة. ففي مشادة مع شارون، قال الرئيس الإقليمي لمجلس السامرة: «سنحارب بكل قوتنا، وسننزل الشوارع. والطريق الدبلوماسي هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل»(٧٢). وقد لخص جدعون عيست الموقف في عبارة درامية «ثمة ما يمكن البكاء عليه: إسرائيل»(٧٣).

بل إن مجلة نيوزويك(٧٤) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: «مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟». وقد زادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: «هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟». ثم اقتبست المجلة قول الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون: «إنني في حالة يأس لأنني أخشى أن يكون الأمر قد انتهى! وهذا هو نصف ما أخشاه». ولا يختلف رأي الأمريكيين (أوثق حلفاء إسرائيل) عن ذلك. فقد أعرب ١٨٪ عن رأيهم في أن إسرائيل ستختفي من الوجود، وقال ٢٣٪ أنها لو استمرت في البقاء فلن تكون دولة يهودية، وهذه نسبة عالية للغاية (٤١٪). والواقع أن أحداً لم يكن يجرؤ حتى على طرح السؤال منذ عدة شهور!

و«نهاية إسرائيل» تذكر الإسرائيليين بنهاية جيب استعماري آخر غير مأسوف عليه وهو حكومة فيتنام الجنوبية. ففي مقال له بعنوان «ليلة سعيدة أيها اليأس.. فالكآبة تحيط بإسرائيل» يشير إتيان هابر(٧٥) إلى أن الجيش الأمريكي كان مسلحاً بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا فإن الجميع يتذكرون «صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة في سايجون محاولة إنقاذ الأمريكيين و[عملائهم] المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت».. وكل لبيب بالإشارة يفهم! إن ماساداه (رمز المقاومة البطولية الانتحارية) لم تطل برأسها وإنما الطائرة المروحية (رمز المقدرة على الاستسلام وعلى الهروب الجبان في الوقت المناسب). ولا شك أن تبدل الرموز بهذا الشكل يدل على مدى التحول الذي أصاب الخريطة الإدراكية الصهيونية.

والله أعلم.

هوامش
الفصل السابع

(١) داني زكانثي، «كئيبون وعاجزون ويرفضون التعلم»، مجلة نيم (العدد ١٧).

(٢) هاآرتس سبتمبر ٢٠٠١.

(٣) يديعوت أحرونوت ٢٩ يناير ٢٠٠٢م.

(٤) هاآرتس ١ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥) يديعوت أحرونوت ٢٩ يناير ٢٠٠٢م.

(٦) نفس المرجع.

(٧) هاآرتس ٨ فبراير ٢٠٠٢م.

(٨) معاريف ١٠ فبراير ٢٠٠٢م.

(٩) معاريف ١١ فبراير ٢٠٠٢م.

(١٠) معاريف ١٠ فبراير ٢٠٠٢م.

(١١) يديعوت أحرونوت ٢٩ أغسطس ٢٠٠١م.

(١٢) الجيروساليم بوست ١ يناير ٢٠٠٢م.

(١٣) معاريف ١٧ نوفمبر ٢٠٠٠م.

(١٤) يديعوت أحرونوت ١١ مارس ٢٠٠٢م.

(١٥) مارتن آسر أون لاين B.B.C.

(١٦) هاآرتس ١٣ نوفمبر ٢٠٠١م.

(١٧) هاآرتس ٢٥ يناير ٢٠٠٢.

(١٨) معاريف ١١ فبراير ٢٠٠٢م.

(١٩) معاريف ٣٠ يناير ٢٠٠٢.

(٢٠) يديعوت أحرونوت ١١ نوفمبر ٢٠٠١.

(٢١) هاآرتس ٢٣ نوفمبر ٢٠٠١.

(٢٢) هاآرتس ٦ أكتوبر ٢٠٠١م.

(٢٣) معاريف ٢ أبريل ٢٠٠٢م.

(٢٤) يديعوت أحرونوت ١٤ فبراير ٢٠٠٢م.

(٢٥) هاآرتس وبنئيم (عدد ١٧) صيف ٢٠٠١م.

(٢٦) يديعوت أحرونوت، BBC، ٦ مارس ٢٠٠٢م.

(٢٧) Israel's Business Rena Reviiew، ٣١ مارس ٢٠٠٢م.

(٢٨) الجيروساليم بوست، ٤ فبراير ١٩٨٨.

(٢٩) هاآرتس، ١١ فبراير ١٩٨٨م.

(٣٠) هاآرتس، ١ فبراير ٢٠٠٢.

(٣١) هاآرتس، ٢ سبتبمر ٢٠٠١م.

(٣٢) معاريف، ٣ ديسمبر ٢٠٠١.

(٣٣) يديعوت أحرونوت، ١٣ يناير ٢٠٠٢.

(٣٤) هاآرتس، ٤ فبراير ٢٠٠٢.

(٢٥) يديعوت أحرونوت، ٢٩ يناير ٢٠٠٢.

(٢٦) هاآرتس، ١٩ يناير ٢٠٠٢م.

(٢٧) هاآرتس، ١٦ فبراير ٢٠٠٢م.

(٣٨) يديعوت أحرونوت، ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٠م.

(٣٩) هاآرتس، ٢١ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٤٠) هاآرتس، ٢١ سبتمبر ٢٠٠١م.

(٤١) معاريف، ٢٤ مارس ٢٠٠٢م.

(٤٢) معاريف، ١٤ نوفمبر ٢٠٠١م.

(٤٣) واشنطن بوست، ٤ سبتمبر ٢٠٠١م، منقول من الجيروساليم بوست.

(٩٤٤ يديعوت أحرونوت، ١١ فبراير ٢٠٠١م.

(٤٥) يديعوت أحرونوت، ٣٠ يناير ٢٠٠٢م.

(٤٦) نيوزويك، ١٨ مارس ٢٠٠٢م.

(٤٧) يونيل ماركوس، هاآرتس، ١٩ فبراير ٢٠٠٢م.

(٤٨) هاارتس، ١٣ يناير ٢٠٠٢م.

(٤٩) الشرق الأوسط، ٢١ يناير ٢٠٠٣م.

(٥٠) هاآرتس، ٢٥ يناير ٢٠٠٢م.

(٥١) الجيروساليم بوست، ٧ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥٢) يديعوت أحرونوت، ١٢ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥٣) الشرق الأوسط، ١٣ يناير ٢٠٠٢م.

(٥٤) الاندبندنت، ٤ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥٥) يديعوت أحرونوت، ٧ مايو ٢٠٠١م.

(٥٦) هاآرتس، ١٩ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥٧) هاآرتس، ٢٤ اغسطس ٢٠٠١م.

(٥٨) السفير، ١٨ فبراير ٢٠٠٢م.

(٥٩) يديعوت أحرونوت، ٤ يونيه ٢٠٠١م.

(٦٠) يديعوت أحرونوت، ٢٩ مارس ٢٠٠٢م.

(٦١) الأهرام ويكلي، ١٩ أبريل ٢٠٠١م.

(٦٢) هاآرتس. يناير ٢٠٠٢م.

(٦٣) معاريف. يناير ٢٠٠٢م.

(٦٤) هاآرتس، ٤ مارس ٢٠٠٢م.

(٦٥) هاآرتس، ١٣ نوفمبر ٢٠٠١م.

(٦٦) يديعوت أحرونوت، ٢٢ يناير ٢٠٠٢م.

(٦٧) هاآرتس، ٣ مارس ٢٠٠٢م.

(٦٨) هاآرتس، ٣١ مارس ٢٠٠٢م.

(٦٩) الجيروساليم بوست، ٣٠ يناير ١٩٨٨ م.

(٧٠) يديعوت أحرونوت، ٢٧ يناير ٢٠٠٢م.

(٧١) معاريف، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠١م.

(٧٢) هاآرتس، ١٧ يناير ٢٠٠٢م.

(٧٣) يديعوت أحرونوت، ٢٩ يناير ٢٠٠٢م.

(٧٤) نيوزويك، ٢ أبريل ٢٠٠٢م.

(٧٥) يديعوت أحرونوت، ١١ نوفمبر ٢٠٠١م.

الفهرس

الصفحة

المؤلف ومؤلفاته:

الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلف عربي معني بالحضارة الغربية الحديثة وبشؤون أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وُلد في دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨، ويعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب الإنجليزي والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات). وقد حصل على عدة جوائز من بينها جائزة العويس للدراسات الإنسانية والمستقبلية لعام ٢٠٠٢. وله عدة دراسات في الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبي من أهمها:

- **نهاية التاريخ** (القاهرة، ١٩٧٢).
- **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية**: رؤية نقدية (القاهرة: ١٩٧٥).
- **الفردوس الأرضي**: دراسات وانطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت، ١٩٧٩).
- **الشعر الرومانتيكي الإنجليزي**: النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت، ١٩٧٩).
- **الأيديولوجية الصهيونية**: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت، ١٩٨٨).
- **العُرس الفلسطيني**: مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية (واشنطن، ١٩٨٨).

- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية**: دراسة في الإدراك والكرامة (القاهرة، ١٩٩٠).
- **إشكالية التحيز**: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (القاهرة، ١٩٩٣) ٧ مجلدات.
- **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**: نموذج تفسيري جديد (القاهرة، ١٩٩٩) ٨ مجلدات.
- **نور والذئب الشهير بالمكار - سندريللا وزينت هانم خاتون - معرفة كبيرة صغيرة - سر اختفاء الذئب الشهير بالمحتار**.. إلخ (قصص للأطفال) (القاهرة، ٢٠٠٠).
- **العلمانية تحت المجهر** (دمشق، ٢٠٠٠).
- **رحلتي الفكرية** - في البذور والجذور والثمر: سيرة غير ذاتية غير موضوعية (القاهرة، ٢٠٠١).
- **الأكاذيب الصهيونية** - من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى (القاهرة، ٢٠٠١).
- **فلسطينية كانت ولم تزل**: الموضوعات الأساسية في شعر المقاومة الفلسطينية: ١٩٦٠ - ١٩٨٢ (القاهرة، ٢٠٠١).
- **اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود** (القاهرة، ٢٠٠٢).
- **الجماعات الوظيفية اليهودية**: نموذج تفسيري جديد (القاهرة، ٢٠٠٢).
- **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان** (دمشق، ٢٠٠٢).
- **انهيار إسرائيل من الداخل** (القاهرة، ٢٠٠٢).
- **مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي** (دمشق، ٢٠٠٢).
- **الحداثة وما بعد الحداثة** (دمشق، ٢٠٠٣).

- ❖ **من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية**: أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني (القاهرة، ٢٠٠٣).
- ❖ **البروتوكولات واليهودية والصهيونية** (القاهرة، ٢٠٠٣).
- ❖ **الموسوعة الموجزة**: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية في مجلدين (القاهرة، ٢٠٠٣).

وله عشرات المقالات في الشعر الإنجليزي والأمريكي والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربي الإسرائيلي.

هذا الكتاب

الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون، قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وكيف تكون استجابة الإنسان الذي يتم تحدي خريطته الإدراكية، كما يحدث في فلسطين المحتلة حين يتحدى المنتفضون خريطة الصهاينة الإدراكية التي تستند الى مجموعة من الأساطير والديباجات التوراتية من خلال المقاومة أو ما نسميه الحوار المسلح.

وهذه القضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والإجتماعية، بل والطبيعية. والكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية: هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي الى تحقيقه.

وعلى الرغم من أن كل فصول الكتاب تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، فإن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الخريطة الإدراكية وكيف تحدد الرؤية، وكيف يمكن تحديها حتى يتم تعديلها أو تقويضها تماماً، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متعينة.

*****

تصدر هذه الدراسة بمناسبة احتفاء الدكتور عبد ال
ببلوغه الخامسة والستين من العمر، وفي هذه المناسب
الحمراء عمراً مديداً حافلاً بالمزيد من الإنتاج الفكري الرصيد

دار الحمراء
للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع
ص.ب: ١١٣/٥٣٨٦ - بيروت